المدخل إلى العهد القديم

(الكتب المقدسة)

الدكتور القس صموئيل يوسف خليل



طبعة ثانية

الكتاب : **المدخل إلى العهد القديم**
المؤلف : **د.ق. صموئيل يوسف**
صدر عن : دار الثقافة- ص.ب ١٦٢ -١١٨١١ - البانوراما - القاهرة
رقم الإيداع : ٧٨٨٠/ ١٩٩٣
الترقيم الدولي : 6- 170 - 213 - 977
المطبعة : مطبعة سيويرس ت: ٦٢٢١٤٢٥/٦
الإخراج الفني والجمع : دار الثقافة
تصميم الغلاف : ماري عادل

١٠ / ٥٨٦ طم / ٢-٣ / ١٩٩٣ - ٢٠٠٥

إرمـيـــا

أطلق على السفر اسم إرميا نبي القرن السابع ق.م. وفي الكتاب المقدس العبري جاء السفر قبل سفر حزقيال. والترتيب الحالي يتبع الترجمة السبعينية أيضاً. أما الترجمات السريانية البسيطة (بشيتا) فجاء السفر بعد أسفار الأنبياء الاثنى عشر. وإرميا اسم عبري معناه الرب يحرر.

أقسام ومشتملات السفر

أولاً: نبوات ضد يهوذا وأورشليم (١:١-٢٥:٣٨).

١- رؤى نبوية افتتاحية (١:١-١٩).

٢- تحذير يهوذا بمعاناة مملكة الشمال (١:٢-٦:٣٠).

٣- الديانة الخاطئة لأورشليم (١:٧-١٠:٢٥).

٤- رفض إسرائيل لكسرها العهد مع الله (١:١١-١٣:٢٧).

٥- الوساطة النبوية لا تمنع الدينونة (١:١٤-١٧:٢٧).

٦- مكيدة ضد إرميا (١:١٨-١٧).

٧- مثل الفخّاري (١٨:١٨-٢٣).

٨- أعمال رمزية وسجن (١:١٩-٢٠:١٨).

٩- إعلانات عن يهوذا (١:٢١-١٤)

١٠- تحذير للملك والشعب (١:٢٢-٩).

١١- مصير شلوم (١٠:٢٢-١٢).

١٢- إعلان ضد يهوياقيم (١٣:٢٢-٢٣).

١٣- الملك المسيا (١:٢٣-٨).

١٤- إعلانات ضد الأنبياء الكذبة (٩:٢٣-٤٠).

١٥- تحذير ليهوذا (١:٢٤-٢٥:٣٨).

ثانياً: أحداث في حياة إرميا (١:٢٦-٤٥:٥).

١- عظة الهيكل والقبض على إرميا (١:٢٦-٢٤).

٢- نير بابل (١:٢٧-٢٩:٣٢).

٣- سفر التعزية (١:٣٠-٣٣:٢٦).

أ. يوم الرب (١:٣٠-٢٤).

ب. عودة الشعب والعهد الجديد (٣١:١-٤٠).

ج. شراء إرميا للحقل الذي في عناثوث (٣٢:١-٤٤).

د. وعود خاصة بالعودة (٣٣:١-٢٦).

٤- تحذير (٣٤:١-٢٢).

٥- مثل الركابيين (٣٥:١-١٩).

٦- درج السفر وإملائه ثانية لباروخ الكاتب (٣٦:١-٣٢).

٧- إرميا خلال حصار أورشليم (٣٧:١-٤٠:٦).

٨- نظام جدليا الإداري واعتقاله (٤٠:٧-٤١:١٨).

٩- الهجرة والهروب إلى مصر (٤٢:١-٤٣:٧).

١٠- إرميا في مصر (٤٣:٨-٤٤:٣٠).

١١-إعلان إرميا لباروخ (٤٥:١-٥).

ثالثا: إعلانات ضد الشعوب الأجنبية (٤٦:١-٥١).

رابعاً: خاتمة تاريخية (٥٢:١-٣٤).

١- سقوط أورشليم وأحداث دامية أخرى (٥٢:١-٣٠).

٢- تكريم يهوياكين (٥٢:٣١-٣٤).

إرميا النبي ورسالته

يعد سفر إرميا من الأسفار الطويلة في العهد القديم، والتي تمدنا بالكثير عن النبي إرميا وحياته الشخصية، وكانت لباروخ (تلميذه) اليد الطولي في الحفاظ على السفر.

ولد إرميا بن حلقيا الكاهن بعد عام ٦٥٠ ق.م في قرية عناثوث - والتي تبعد بمقدار ميلين إلى الشمال الشرقي من مدينة أورشليم - في نهاية حكم منسى الذي دام طويلاً (٥٥ عاماً) حيث أفسدت العبادة الوثنية الديانة اليهودية. وتعرف قرية عناثوث اليوم برأس الخروبة.

ولد النبي إرميا من أسرة كهنوتية. إلا أنه لم يكن كاهناً بل دخل في صراع مع الكهنة وأيضاً مع أعضاء أسرته (١٢:٦، قارن ١١:١٨-٢٣). وطبقاً لما جاء في (١مل ٢:٢٦-٢٧) كانت عناثوث المقر الدائم لأسرة الكاهن أبياثار (التي تمتد إلى عالي الكاهن) الذي طرده الملك سليمان لتأييده محاولة أدونيا للاستيلاء على الحكم. وربما أمضى إرميا فترة شبابه في أورشليم. وتعرف على رسالة الأنبياء الذين سبقوه وخاصة النبي هوشع. فرسالته المبكرة تظهر التأثير العميق لهذا النبي على تفكيره والدور الذي يقوم به.

وجاءت دعوة إرميا عام ٦٢٦ ق.م تقريباً في سنة وفاة أشور بانيبال آخر ملوك أشور العظام في السنة الثالثة عشر لحكم الملك يوشيا (١:٢، ٢٥:٣). وكان عمر إرميا ما يقرب من عشرين عاماً (١:٦) عندئذ. وقد ساعد ضعف القوة الأشورية على استقلال يهوذا، لذلك عندما عثر على سفر الشريعة في الهيكل عام ٦٢١ ق.م تقريباً، تمكن الملك يوشيا (دون تدخل خارجي)، من تحقيق الإصلاح الديني القومي الكبير (٢مل ٢٢-٢٣). ويشير إرميا

النبي في سفره إلى هذا الكشف المبارك لسفر الشريعة (١١:١-٨). كما يقدم الأصحاح الثاني والثالث خلفية لهذا الإصلاح الديني العظيم. وقد استمرت خدمة إرميا إلى مابعد سقوط مدينة أورشليم بواسطة نبوخذنصر، والتي دامت ما يقرب من خمسين سنة، ومنذ دعوته عرف إرميا بالخطر القادم من الشمال (من أشور) على أورشليم وتأكد من سقوطها (١١:١-١٦)، كما سنرى فيما بعد.

إن شخصية إرميا تشكل أهمية خاصة في تاريخ الديانة العبرانية، كما يرى العلماء فتجاربه الشخصية ومشاعره الداخلية تنعكس بوضوح في كلماته أكثر من أي نبي آخر. كرسول من الله إلى شعب زمانه. وتمتع إرميا بشخصية قوية. وتضمن سفره مجموعة نصوص تعطينا نظرة غير عادية لمشاعره الداخلية (١٠:٢٣-٢٤، ١١:١٨-١٢:٦، ١٥:١٠-٢١، ١٧:٩-١٠ و١٤-١٨، ١٨:١٨-٢٣، ٢٠:٧-١٢ و١٤-١٨) ويُطلق على هذه النصوص اعترافات إرميا، لكن بعض هذه النصوص أخذ طابع المنولوج (الحديث إلى الذات) (١٥:١٠، ٢٠:١٤-١٨) والبعض الآخر صلاة إلى الله واستجابة الرب له (١١:١٨-٢٣، ١٢:١-٦، ١٥:١٥-٢١).

واتسمت حياة إرميا بالصراع الداخلي بين رغباته الطبيعية من ناحية وبين تفهمه للدعوة الإلهية من ناحية أخرى. وكان إرميا مرهف الحس ويرغب في الخير للجميع، عميقاً في فكره وفي ولائه لدعوته وإرساليته، مما جعله يواجه كراهية واضطهاداً لأنه أذان الظلم والخراب (٢٠:٨) «ناديت ظلم واغتصاب». وقد مُنع من الاشتراك في الأفراح والأحزان مع رفاقه. كما منع من الزواج (١٦:١-١٣) وشعر النبي بأن عليه أن يعيش ويد الله عليه (١٥:١٧) كما رغب لو أنه لم يولد (١٥:١٠، ٢٠:١٤-١٨)، ويبعد عن شعبه ويعيش وحيداً في البادية. ووصل الفشل بإرميا إلى درجة الفتور الروحي (١٥:١٨). ورغم أنه يعترف بأن الرب هو ينبوع الماء الحي (٢:١٣)، إلا أن إرميا نفسه كانت له لحظات ابتهاج وتمجيد وملء الفرح (١٥:١٦). وتكلم عن الله الجبار القدير الذي يحارب عنه فيعثر مضطهدوه (٢٠:١١) ولم يخف النبي مشاعره على الإطلاق. ولم يتردد أن يدين كل الشعب بطبقاته المختلفة من كهنة وأنبياء كذبة والأمراء والملوك والحكام. فلم يكن إرميا نبياً باكيًا فقط كما هو معروف أنه بكى ورثى لنفسه، ومرات كثيرة بكى على الناس الذين من حوله مثل بسوع «من أجل سحق بنت شعبي انسحقت حزنت...» (٨:٢١). وتضمن سفره الكثير من المراثي (٨:١٨-٩:١، ٩:١٠-١١ و١٧-٢٢، ١٠:١٩-٢١، ١٤:٢-٦).

ولكن النبي لم يفتقر للشجاعة وقت احتياجه إليها وفي الوقت المناسب، وطلب النقمة لأعدائه ومضايقيه (١١:٢٠، ١٢:٣، ١٥:١٥، ١٧:١٨) وصلى طالباً المتاعب على زوجات وأطفال أعدائه شخصياً (١٨:٢١-٢٣). ولم يكن على حق في ذلك إلا أنه رأى أن أعداءه هم أعداء الرب ليقينية الإيمان بأن دعوته جاءت من الله رأساً. وأن رسالته هي تعبير عن مشيئة الله. لكننا نراه في موضع آخر يصلي من أجل أعدائه ومن أجل سلامتهم (١٥:١١، ١٧:١٦، ١٨:٢٠).

كاتب السفر وزمن الكتابة

لا يوجد سبب علمي ينفي عن إرميا النبي أنه كاتب السفر بجملته. فقد جاء في الأصحاح (٣٦:١-٢) أنه في السنة الرابعة ليهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا عام ٦٠٤ ق.م تقريباً، أن الرب كلم إرميا قائلاً له: «خذ لنفسك درج سفر، واكتب فيه كل الكلام الذي كلمتك به على إسرائيل وعلى يهوذا وعلى كل الشعوب من اليوم الذي كلمتك فيه من أيام يوشيا إلى هذا اليوم». «فدعا إرميا باروخ بن نيريا فكتب باروخ عن فم إرميا كل كلام الرب الذي كلمه به في درج السفر» (عدد ٤).

وكان في السنة الخامسة ليهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا، أن باروخ قرأ في السفر في يوم الصوم كلام إرميا في بيت الرب، في آذان الشعب (وكان إرميا محبوساً في السجن). وسُمع هذا الأمر لدى الأمراء، والرؤساء الحكام،

وأحضروا باروخ إليهم ليقرأ لهم من درج السفر فقرأ باروخ في آذانهم، فكان لم سمع الرؤساء أنهم خافوا، ناظرين بعضهم إلى بعض. وسألوا باروخ كيف أمكنه كتابة كل هذا الكلام عن فم إرميا. «فقال لهم بفمه كان يقرأ لي كل هذا الكلام وأنا كنت أكتب في السفر بالحبر» (عدد ١٨). «فقال الرؤساء لباروخ اذهب واختبئ أنت وإرميا ولا يعلم إنسان أين أنتما».

وجاء الرؤساء (الأمراء/ الحكام) بدرج السفر إلى يهوياقيم الملك وقرأوا منه أمامه. فما كان من الملك يهوياقيم إلا أن يشق درج السفر بمبراه، وألقاه إلى النار التي في الكانون، حتى فنى كل الدرج في النار. ورغم أن بعضهم ترجوا الملك أن لا يحرق الدرج إلا أنه لم يسمع لهم، وأصدر الملك أمراً بالقبض على إرميا النبي، وباروخ الكاتب «ولكن الرب خبأهما» (٣٦:٢٣-٢٦).

وطلب الرب من إرميا، أن يأخذ درجاً آخر، ويكتب فيه كل الكلام الأول الذي كان في الدرج الأول الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا. فأخذ إرميا درجاً ودفعه لباروخ بن نيريا الكاتب. فكتب فيه عن فم إرميا كل كلام الرب الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا بالنار، وزيد عليه أيضاً كلام كثير مثله (٣٦: ٢٧-٣٢). ويرجع علماء الكتاب المحافظين أن ارميا النبي هو كاتب النبوات الأخرى اللاحقة للسنة الخامسة ليهوياقيم الملك، كما أن إرميا هو المسئول عن ترتيب هذه النبوات لأن باروخ لم يكن إلا كاتباً (مسجلاً) وكل ما كتبه كان بلاشك بناء على توجيه إرميا النبي الذي اصطحبه في الذهاب إلى مصر التي يرجح بأنه مات فيها (٤٣:٦-٧).

الخلفية التاريخية

عاش إرميا حقبة هامة في تاريخ الشرق الأدنى القديم. وشاهد سقوط الإمبراطورية الأشورية ونهوض الإمبراطورية البابلية الكلدانية الحديثة، (حيث كان الكلدانيون يسكنون في الجنوب) (تك ١١:٣١، نحميا ٩:٧)، وكانوا هم الجنس الغالب في بابل ومنهم الملوك مردوخ بلادان ونبوخذ نصر وأويل مردوخ. ورأي إرميا دولته (مملكة يهوذا) تفقد استقلالها وتصبح إمارة بابلية. وكانت شخصية إرميا معروفة جداً في عصره. فقد عاون بني جنسه على أن يتغلبوا على الصعاب، وأن يجدوا لأنفسهم أساساً قوياً يبنون عليه إيمانهم. وبهذا أصبح إرميا أحد الشخصيات الهامة في تاريخ العهد القديم.

وحري بنا في هذا المقام أن نلقي بعض الضوء التاريخي على سقوط أشور ونهوض إمبراطورية بابل الكلدانية وسقوط مملكة يهوذا. حتى ندرك أهمية ودور النبي إرميا ورسالة السفر.

لقد تأسست الإمبراطورية الأشورية في منتصف القرن الثامن بواسطة تغلث فلاسر الثالث، وكان أشور بانيبال (٦٦٩-٦٣٣) ق.م آخر ملوكها العظام. وقد أصاب أشور الضعف الكبير بسبب الحروب الطويلة التي خاضتها والصراعات التاريخية وهجمات البرابرة من الشمال. وهبت عاصفة المادين والكلدانيين الذين كونّوا تحالفاً قوياً واستولوا على مدينة أشور عام ٦١٤ ق.م. وبعد عامين سقطت نينوي عاصمة الإمبراطورية الأشورية. وهرب بعض القادة منهم إلى حاران. وحاولوا تكوين مملكة تحت زعامة رجل يدعي أشور يوباليت. ولكن الهزيمة حاقت بهم سريعاً بواسطة الكلدانيين في كركميش التي تقع غربي نهر الفرات وإلى الشمال من سوريا وذلك في عام ٦٠٥ ق.م. كما لحقت الهزيمة بجيوش المصريين بزعامة نخو فرعون مصر الذي توجه لمساندة البقية الباقية من الأشوريين (إرميا ٤٦:٢)[1].

هذا هو نخو فرعون مصر الذي قتل يوشيا ملك يهوذا عام ٦٠٩ ق.م في مجدو المدينة الكنعانية الواقعة إلى

(1) G.W. Anderson, A Critical Introduction to the Old Testament, pp, 121-122.
James P. Hayatt, IB, vol.5, pp. 777-778.
R.K. Harrison, Introduction to the O.T.pp. 802-804.

الجنوب الغربي من حيفا بعشرين ميلاً، لأن يوشيا اعترض على ذهاب نخو لمناصرة الآشوريين ضد البابليين. ولم يسمع لكلام نخو عن فم الله، ولم يفطن أن الرب قد تكلم إليه عن طريق هذا الملك الوثني كما يرى بعض العلماء. ويرجع البعض الآخر إلى أن نخو فرعون مصر طلب عون يوشيا ضد البابليين ولم يستجيب له يوشيا فهم بقتله (قارن ٢مل ٢٣:٢٩، ٢أخ ٣٥:٢٠-٢٤) ورثاه إرميا النبي (٢أخ ٣٥:٢٥).

وأخذ شعب الأرض يهوآحاز بن يوشيا وملكوه عوضاً عن أبيه في أورشليم. وبعد ثلاثة أشهر فقط عزله ملك مصر وملك ألياقيم أخاه على يهوذا وأورشليم عوضاً عنه وغير اسمه من ألياقيم إلى يهوياقيم وأما يهوآحاز فأخذه نخو إلى مصر (٢مل ٢٣:٣٠-٣٤، ٢أخ ٣٦:١-٤).

وملك يهوياقيم إحدى عشر سنة على يهوذا من عام ٦٠٩-٥٩٨ق.م. وعمل الشر في عيني الرب حيث كان حاكماً متجبراً ومتسلطاً. وأفسد كل الإصلاحات التي قام بها يوشيا أبيه. وظل يهوياقيم تحت لواء المصريين الذين عينوه ملكاً على يهوذا إلى السنة الرابعة من حكمه، والتي قتل فيها فرعون نخو ملك مصر بواسطة نبوخذراصر ملك بابل (٤٦:٢) في كركميش كما سلفت الإشارة. وكان بعد ذلك أن حول يهوياقيم ولاءه إلى البابليين القوة السائدة في تلك الفترة، بل صار عبداً لهم. واستسلم لنفوذهم ليتحقق كلام الرب الذي تكلم به عن يد عبيده الأنبياء (٢مل ٢٤:١-٢، قارن إرميا ٩:١٠-٢٢، ١٢:٧-١٣). ثم حوصرت بعد ذلك مدينة أورشليم. ومات يهوياقيم الملك عام ٥٩٧ق.م واضطجع مع آبائه. وملك يهوياكين ابنه عوضاً عنه، وكان ابن ثماني عشرة سنة حين ملك، وملك ثلاثة أشهر في أورشليم. وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل أبوه. وجاء نبوخذ نصر ملك بابل إلى أورشليم والمدينة تحت الحصار، وأخذ يهوياكين ملك يهوذا وجميع أهل بيته حملهم نبوخذ نصر من بابل. واستولى على خزائن بيت الرب وبيت الملك وكسر كل ما صنعه الملك سليمان في هيكل الرب كما تكلم الرب. وسبى نبوخذنصر كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبي، وجميع الصناع والمهرة، ولم يبق إلا مساكين شعب الأرض (٢٤:٦-١٤) كما تنبأ إرميا (٢٢:٢٤-٣٠). غير أن يهوياكين عومل معاملة حسنة في البلاط الملكي بعد تولي أويل مردوخ على بابل (٢مل ٢٥:٢٧-٣١، إرميا ٥٢:٣١-٣٤)، وعين نبوخذنصر ملك بابل متنيا بن يوشيا على يهوذا عوضاً عن يهوياكين وغير اسمه إلى صدقيا وملك إحدى عشرة سنة. وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل يهوياقيم (٢مل ٢٤:١٩) وتمرد أيضاً على الملك نبوخذنصر الذي حلّفه بالله. وصلّب عنقه وقوّى قلبه عن الرجوع إلى الرب إله إسرائيل (٢أخ ٣٦:١٢-١٣، قارن حزقيال ١٧:١٣-٢١).

ولم يتواضع صدقيا أمام إرميا النبي الذي تكلم بكلمة الرب، والذي حثه على أن يكون موالياً لبابل، وهذا أقل الشرور حتى لا تتعرض الأمة للهلاك... «أدخلوا أعناقكم تحت نير ملك بابل واخدموه وشعبه واحيوا» (إرميا ٢٧:١٢).

وجاء نبوخذ نصر واستولى على مدينة أورشليم بعد حصار طويل. وتعد هذه الفترة من أقسى الفترات بالنسبة لإرميا النبي الذي قُبض عليه بينما هو منطلق من أورشليم إلى أرض بنيامين. ووضع إرميا في دار السجن أياماً كثيرة. ثم أرسل الملك صدقيا، وأخذ إرميا وسأله الملك في بيته سراً، وقال له: هل توجد كلمة من قبل الرب. فقال إرميا توجد. فقال: إنك تُدفع ليد ملك بابل (٣٧:١٢-١٦). وتحدث إرميا النبي أمام الرؤساء الحكام بهذه الحقيقة فاشتكوا أمام الملك فما كان منهم إلا أن يلقوا إرميا النبي بحبال في الجب وإذ لم يكن فيه ماء بل وحل «فغاص إرميا في الوحل» (٣٨:١-٦). وأنقذت حياته بواسطة عبد ملك الكوشي (٣٨:٧-١٣). وعندما سقطت أورشليم، وعمى صدقيا بعد أن قتل ملك بابل بنيه أمام عينه. أوصى نبوخذ نصر ملك بابل رئيس الشرط نبوزرادان قائلاً له: «خذ إرميا وضع عينيك عليه ولا تفعل به شيئاً رديئاً بل كما يكلمك هكذا أفعل معه» (٣٩:١١-١٤). وأسلم الرؤساء إرميا إلى جدليا بن أخيقام ليخرج به إلى البيت ويسكن بين الشعب، غير أنه بعد فترة وجيزة اغتيل جدليا

بواسطة إسمعيل بن نثنيا (١:٤١-٢٢).

وارتعب اليهود الباقون من بطش البابليين، وطلبوا اللجوء إلى مصر للنجاة (١٧:٤١-١٨). ورفض إرميا بشدة هذه الفكرة (٩:٤٢-٢٢) ولم يسمع له الشعب واضطر هو نفسه أن ينزل معهم إلى مصر (١:٤٣-٧). وفي تحفنحيس في مصر حيث استقر جماعة اليهود، واصل إرميا خدمته في مصر (٨:٤٣-١٣) وتنبأ بكلمة الرب وتقديم رسالته لهم هناك (أصحاح ٤٤).

بيان توضيحي تاريخي

الملك	شواهد كتابية	المدة(سنة)	من	إلى
يوشيا	(٢مل ٢٢-٢٣، ٢أخ ٣٤-٣٥)	٣١	٦٣٩ ق.م	٦٠٨ ق.م
يهوآحاز بن يوشيا	(٢مل ٢٣: ٣٠-٣٤، ٢أخ ١:٣٦-٤)	٣ شهور	٦٠٨ ق.م	
يهوياقيم بن يوشيا	(٢مل ٣٤:٢٣-٧:٢٤، ٢أخ ٥:٣٦-٨)	١١	٦٠٨ ق.م	٥٩٧ ق.م
يهوياكين بن يهوياقيم	(٢مل ٦:٢٤-١٧، ٢أخ ٨:٣٦-١٠)	٣ شهور	٥٩٦ ق.م	
صدقيا بن يهوياقيم (إلى سقوط أورشليم وسبي الشعب)	(٢مل ٢٥:٢٤، ٢أخ ١١:٣٦-١٤)	١١	٥٩٧ ق.م	٥٨٦ ق.م

وكانت كلمة الرب إلى إرميا قائلاً:

قبلما صورتك في البطن عرفتك

وقبلما خرجت من الرحم قدستك

جعلتك نبياً للشعوب

لتقلع وتهدم... وتبني وتغرس

تنجلي دعوة النبي إرميا في الحوار البديع والباني، المترفق والمشجع، لإنسان ترابي. من الإله القدوس الخالق والفادي، ويلمس الرب فم النبي الشاب اليانع الذي ربما لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره قائلاً له: «ها قد جعلت كلامي في فمك» (إرميا ١:٤-١٩). وكم كانت كلمة الرب حافزاً على الغلبة والنصرة (١٤:٥، ٢٣: ٢٩) لإرميا، الذي لم ير نفسه إلا شخصاً صغيراً ضعيفاً لا يقدر على الكلام. وظل مصارعاً مع قوة كلمة الله القدير التي لم يستطع الإحجام عنها.

لقد رأى إرميا أن حياته هي خطة من الله. وهو بعد في البطن اختاره الرب وقدسه، ليكون نبياً ومعلماً منذراً للشعوب، ومعلناً دينونته العادلة على كل نفس. وعبثاً حاول إرميا الهرب من مسئوليته العظمى (قارن خروج ٣-٤ ودعوة موسى). ولكن عليه أن يكون خادماً لكلمة الرب صانعة التاريخ وبيأس. إنها الكلمة المصحوبة بقوة لإرميا «لتهدم وتبني» (١٠:١)، حتى تعلم شعوب الأرض أن الرب هو المسيطر على الخليقة كلها وليس بالصراع المحموم.

«ومد الرب يده ولمس فمي وقال الرب لي، ها قد جعلت كلامي في فمك. انظر قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب، وعلى الممالك، لتقلع وتهدم، وتهلك، وتنقض، وتبني وتغرس» (٩:١-١٠).

ورأى إرميا رؤيتين

الرؤيا الأولى (١٢:١) رأى فيها إرميا «قضيب لوز» والكلمة تعني في العبرية (ساهر أو حارس). وقال له الرب أحسنت الرؤيا لأني أنا ساهر على كلمتي لأجريها، أي أن الرب ساهر ليعمل على تحقيق ما تكلم به على يهوذا لكي

يتمم خطته وقصده (قارن إش ٥٥: ١٠-١١).

الرؤيا الثانية (١: ١٣-١٦) تقدم تفسيراً واضحاً لما تضمنته الرؤيا الأولى بأن القضاء آت على يهوذا. لقد رأى إرميا قدراً منفوخة ووجهها من جهة الشمال نحو الجنوب. وقال الرب «من الشمال ينفخ الشر على كل سكان الأرض أرض يهوذا، لأني آت بشر من الشمال وكسر عظيم» (قارن ٤: ٥-٦: ٢٧). إن الرب يجري قضاءً وعدلاً على فم النبي على كل ملوك يهوذا ورؤسائها، ولكهنتها وشعب الأرض. ويطمئن الرب نبيه قائلاً: «ويحاربونك ولا يقدرون عليك لأني معك يقول الرب لأنقذك» (١: ١٨-١٩).

حتمية الدينونة

عاصر النبيان إرميا وحزقيال التغيير المفاجيء والإصلاحات الجذرية أيام يوشيا ملك يهوذا. جاء النبيان من أسرة كهنوتية، كما أنهما يكملان الواحد الآخر، مثلهما في ذلك مثل النبين عاموس وهوشع، اللذان تنبآ عن زمن السقوط... وحتمية العقاب. وكانت مهمتهما أن يتحدثا عن المأساة، ويعبرا عنها، وأن يفسرا المعاني الدينية التي تسلماها من الرب والتي لأجلها جُعلا.

وربما يكون إرميا قد تأثر كثيراً بالنبي هوشع، كما يرى العلماء، (قارن الأصحاح الثاني من إرميا ونبوة هوشع) ويذكرهم النبي بحدث الخروج والتيهان في البرية وعهد إسرائيل من الرحمة، والمحبة القوية، إنها علاقة محبة مضحية باذلة (أعداد ١-٣) كعلاقة الزوج بزوجته لكن قد تغير الأمر، وصار عهد دعوى (محاكمة) (٢: ٤-١٣).

لقد كانت حياة إسرائيل في كنعان تاريخاً يدل على عدم أمانة الشعب الذي عاش حياة بلا أدنى تقدير لأعمال الرب القدير المحب لهم منذ البدء وعونه السخي لهم (٢: ٥-٧) ووصلت الدعوى إلى قمتها في الاتهام ضد إسرائيل التي صارت باطلاً مع آلهتها الوثنية (عدد ٥).

ويناجي النبي باندهاش وحيرة «ابهتي أيتها السموات من هذا واقشعري وتحيري جداً يقول الرب. لأن شعبي عمل شرين. تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم أباراً، أباراً مشققة لا تضبط ماء» (٢: ١٢-١٣).

ويُشبه إرميا النبي إسرائيل بالزوجة الخائنة التي تترك أليف صباها (٣: ١٩-٢٠) وصارت زانية تجري وراء شهواتها مثل البهيمة المتوحشة (٢: ٢٠-٢٥)، لذلك لابد من الطلاق (٣: ١-١٥) لأن يهوذا لم تتعلم من أختها إسرائيل، التي زاغت وفسدت برجاساتها، فكان لها ككتاب الطلاق مكتوب بلغة مقروءة ومرئية لأحداث مأساوية (٣: ٦-١٤).

ورغم كل هذا فالرب يدعو إلى الرجوع وإلى التوبة لتغيير الحياة. يقول النبي «ارجعوا أيها البنون العصاة فأشفي عصيانكم» (٣: ٢٢). إنها الحاجة إلى تغيير القلب من الداخل. وحرف الشرط (إن) رجعت يا إسرائيل يقول الرب.. وإن نزعت مكرهاتك من أمامي... وإن حلفت حي هو الرب (وإن سلكت) بالحق والعدل والبر تتبرك الشعوب بالرب وبالرب يفتخرون» (٤: ١-٢، قارن ١٨: ٨ و١١).

وقد تصدي إرميا مقاوماً وبشدة فكرة إصلاح الممارسات الدينية الطقسية، ودعا إلى ضرورة الإصلاح من الداخل من القلب مركز الولاء الإنساني والمشاعر والعواطف. إنها دعوة إلى ختان القلب مركز الحياة حتى يتسق وإرادة الله - فقد رأى إسرائيل غلف القلوب شعب متمرد (٩: ٢٦) صلب الرقبة (تث ١٠: ١٦) فحاجته الماسة إذاً هي إلى ختان القلب حتى يستطيع أن يحب الرب إلهه من كل القلب ومن كل النفس ليحيا (تث ٣٠: ٦). إنها دعوة إرميا للشعب لإصلاح الحياة (٤: ٣-٤) في زمن فقد فيه الشعب هويته كشعب مقدس، ولابد من العودة إلى الرب من جديد والرجوع إليه من القلب.

إرميا النبي المتألم

تقدر خدمة النبي إرميا بما يزيد عن أربعين عاماً (٦٢٦-٥٨٧ق.م) من تاريخ المملكة الجنوبية (يهوذا). وأطلق عليه اسم النبي الباكي، الراثي والمشتكي لما لاقاه من معاناة وألم. وتتسم رسالته بالصلابة الحديدية في مواجهة كل فساد وشر وظلم وتعد، كما اتسمت رسالة عاموس وإشعياء من قبله. ومثل سابقيه من الأنبياء، أعلن إرميا بوضوح أن يوم الرب الذي طالما انتظره الشعب، لن يكون يوم انتصار وفرح وابتهاج بل هو يوم ظلمة وقتام، يوم قضاء ودينونة.

وقد جاء عن إرميا في بدء دعوته عن فم الرب أنه سيكون «مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس لملوك يهوذا ورؤسائها وكهنتها ولشعب الأرض. فيحاربونك ولا يقدرون عليك لأني أنا معك يقول الرب لأنقذك» (١٨:١٩). غير أنه كان عاطفياً حساساً - كأم تعطف على أولادها - وارتبطت حياته بمأساة أورشليم، وامتزجت آلامهم بآلامه ونفذت الجراح إلى داخل قلبه واختلطت بكل مشاعر الحزن والألم فيقول: «قلبي سقيم... انسحقتُ حزنتُ أخذتني اللوعة» (قارن ٨:١٨-٢٢).

فقد اكتملت في إرميا الصلابة والقوة مع اللطف والعطف. لذلك نجد في العهد الجديد أن شعب اليهود ظنوا يسوع بأنه إرميا (مت ١٦:١٣).

يهوياقيم الملك الطاغية يحرق الدرج

كما سلفت الإشارة، تعين يهوياقيم ملكاً على يهوذا، بواسطة فرعون نخو ملك مصر، بعد قتل يوشيا أبيه بواسطة المصريين عام ٦٠٩ ق.م في مجدو، وعزل يهوآحاز الذي لم يبق في الحكم سوى ثلاثة شهور (إرميا ٢٢:١٠-١٢)، لذا كان يهوياقيم ملك يهوذا لعبة في يد فرعون نخو ملك مصر، الذي غير اسمه من ألياقيم إلى يهوياقيم (٢مل ٢٣:٣١-٣٦). وكان من مهامه الرئيسية أن يجمع الضرائب الثقيلة من شعب يهوذا فضة وذهباً ويرسلها لملك مصر (٢مل ٢٣:٣٥). وفي كل الأحوال كان يهوياقيم يختلف كثيراً عن أبيه يوشيا (قارن إرميا ٢٢:١٣-١٩). وكان عاصياً أنانياً متسلطاً سخّر شعبه لبناء القصور الفاخرة لنفسه. ولم يكن يعرف الرب حتى يصنع الحق. بل أذل شعبه وسفك دماً بريئاً (أعداد ١٥-١٧). وكل من خالفه أماته لأنه لم يخف الله ولا الناس. وكان يهوياقيم هو الملك الوحيد بين ملوك يهوذا الذي تجاسر وقتل نبي الله (٢٦:٢٠-٢٣). وخلال سيادة وحكم المصريين على فلسطين ما بين موت يوشيا عام ٦٠٩ ق.م، التي قُتل فيها فرعون نخو ملك مصر بواسطة نبوخذ راصر ملك بابل (إرميا ٤٦:٢) ظل يهوياقيم تابعاً بالكامل لسياسة وأوامر المصريين حتى يحتفظ بالحكم ويظل في كرسي المملكة.

والآن حان الوقت ليقدم إرميا النبي رسالته النبوية محذراً ومنذراً بأن خطراً سيأتي من الشمال. وهذا الخطر هو من البابليين وكان يرجو أن يمتثل الشعب لإنذاره هذا، ويرجعوا عن ضلال طريقهم وأفعالهم الشريرة، وأملى النبي على باروخ الكاتب كل الإعلانات التي تسلمها من الرب منذ دعوته، والتي قاربت على ثلاثة وعشرين عاماً، حيث جاءته الدعوة في السنة الثالثة عشر من حكم يوشيا ملك يهوذا (١:٢).

وكتب باروخ عن فم إرميا كل كلام الرب الذي كلمه به في درج السفر. وأوصى إرميا النبي باروخ قائلاً له: «أنا محبوس لا أقدر أن أدخل بيت الرب» (٣٦:٥). «فأدخل أنت واقرأ في الدرج الذي كتبت عن فمي، كل كلام الرب في آذان الشعب في بيت الرب في يوم الصوم. لعل تضرعهم يقع أمام الرب، فيرجعوا كل واحد عن طريقه الرديء. لأنه عظيم الغضب والغيظ الذي تكلم به الرب على هذا الشعب» (٣٦:١-٨).

وقرأ باروخ الكاتب حسبما أوصاه إرميا النبي في يوم الصوم على مسامع الشعب والحكام. فكان لما سمعوا كل

الكلام، أنهم خافوا ونظروا بعضهم إلى بعض. وقالوا لباروخ بأن يخبر الملك بهذا الكلام. وسألوا باروخ قائلين: كيف كتبت كل هذا الكلام من فم إرميا. فقال لهم «بفمه كان يقرأ لي كل هذا الكلام، وأنا كنت أكتب في السفر بالحبر» (عدد ١٨). وقال الرؤساء والحكام لباروخ اذهب واختبئ أنت وإرميا ولا يعلم إنسان أين أنتما. ودخلوا إلى الملك وقرأه يهودي في أذني الملك وفي آذان كل الأمراء الواقفين لدى الملك، وكان الملك جالساً في بيت الشتاء والكانون قدامه متقد. ولما قرأ يهودي ثلاثة سطور أو أربعة أن الملك يهوياقيم شق الدرج بالمبراة وألقاه في النار التي في الكانون حتى فنى كل الدرج في النار. ولم يسمع الملك للرؤساء الذين ترجوه أن لا يحرق درج السفر بل أمر أن يقبضوا على باروخ الكاتب وإرميا النبي «لكن الرب خبأهما» (٣٦: ٢٠-٢٦).

وأخذ إرميا درجاً آخر حسبما أوصاع الرب وكتب فيه باروخ كل الكلام الأول الذي كان في الدرج الأول، الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا وزيد عليه أيضاً كلام كثير مثله (عدد ٣٢)، وما استجد من أحداث كما ساهم باروخ بكثير من الكتابات عن حياة إرميا ونشاطات خدمته مستخدماً ضمير الغائب بدلاً من المتكلم كما رأينا في كثير من الإعلانات الإلهية (أصحاح ٢٦-٤٥) وبعض الأجزاء المتفرقة في الجزء الأول من السفر (من أصحاح ١-٢٥).

وكان قضاء الرب إلى يهوياقيم الذي أحرق درج السفر وأعلنه إرميا النبي قائلاً: عن يهوياقم ملك يهوذا، «لا يكون له جالس على كرسي داود، وتكون جثته مطروحة للحر نهاراً وللبرد ليلاً وأعاقبه ونسله وعبيده على إثمهم. أجلب عليهم وعلى سكان أورشليم وعلى رجال يهوذا كل الشر الذي كلمتهم عنه ولم يسمعوا» (عدد ٣٠-٣١).

بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب

والآن يتساءل الرب على فم إرميا:

هل صار هذا البيت مغارة لصوص؟ (إرميا ٧: ١١، قارن إش ٦: ٧)

إمتلأ إرميا بغيرة مقدسة تجاه ما يفعله يهوياقيم ملك يهوذا، ابن يوشيا الملك الذي تحقق على يديه الكثير جداً من الإصلاح الديني الكبير. وعلى العكس من ذلك كان يهوياقيم مملوءاً شراً وفساداً (٦: ١١).

وفي السنة الأولى من حكم يهوياقيم (٢٦: ١) قام إرميا بجسارة وشجاعة فائقة، بتوجيه كلمات الدينونة وقضاء الرب داخل الهيكل، المكان الذي صار مركز العبادة الدينية ثمرة إصلاحات يوشيا ملك يهوذا أبيه. وقد وردت عظة الهيكل هذه في درج سفر إرميا (الأصحاح ٧) كما وردت أيضاً في مذكرة باروخ (الأصحاح ٢٦) وتكتمل هذه الصورة بقراءة الأصحاحين معاً.

فقد أنهض يهوياقيم العبادة الوثنية التي هدمها يوشيا أبوه. ورجع الشعب إلى طرقهم الأولى بعد أن اختلط عليهم الأمر. وقدم كل واحد قرابينه لأشتار ملكة السماء الإلاهة الأم المعبودة من أشور وبابل (إرميا ٧: ١٨) وتقديم الأبناء كمحرقة في وادي ابن هنوم (توفه) والسواري (٧: ٣٠-٣١، ١٩: ٥، قارن حزقيال ١٦: ٢٠-٢١، ٢٠: ٢٦، ٢٣: ٣١-٢٩) وقاموا بعمل كل ما هو رجس ونجس في عبادتهم الباطلة (٧: ٨-١٠).

واشتعل إرميا في قلبه في ذلك اليوم، عندما وقف في الهيكل. وهو يرى الشعب يدخل بيت الرب لممارساته الدينية الطقسية والتي لم ير فيها النبي سوى العبادة المزيفة المرفوضة من الله، وخاطبهم قائلاً: «اسمعوا كلمة الرب يا جميع يهوذا الداخلين في هذه الأبواب لتسجدوا للرب. هكذا قال الرب، أصلحوا طرقكم وأعمالكم، ولا تتكلوا على أعمال الكذب بتمسككم بالهيكل، لأنكم إن أصلحتم طرقكم وأعمالكم، إن حققتم العدل بين الإنسان وصاحبه ولم تظلموا الغريب واليتيم والأرملة ولم تسفكوا دماً بريئاً في هذا الموضع ولم تسيروا وراء آلهة أخرى فإنكم ستحيون في السلام في هذه الأرض التي وهبتها لآبائكم منذ الأزل وإلى الأبد» (٧: ١-٧).

وقد كشف لهم النبي عن حالتهم الراهنة المرفوضة من الرب، والتي تؤدي إلى هلاكهم في قوله لهم «أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً وتبخرون للبعل، وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها، ثم تأتون وتقفون أمامي في هذا البيت الذي دُعي أسمي عليه وتقولون قد نجونا، وتعودون تفعلون هذه الرجاسات ذاتها. هل صار هذا البيت الذي هو بيتي، مغارة لصوص في أعينكم» (قارن أعداد ٨-١١، مع إش ٥٦:٧، وما آل إليه الهيكل أيام يسوع في إنجيل مرقس ١١:١٧).

اذكروا ما صنعت في شيلوه من أجل شر شعبي إسرائيل

وشيلوه هذه هي مقر خيمة الاجتماع وتابوت عهد الرب (يش ١٨:١ و٨-٩) ومقر سكني عالي الكاهن والقاضي (١صم ٤:١٢ و١٣ و١٨، إرميا ٧:١٢-١٤، قارن ١صم ٤:١-٧:٢). لقد اعتقد شعب إسرائيل بأن حملهم لتابوت عهد الرب في الحرب ضد الفلسطينيين سيحقق لهم النصر، رغم كل نجاساتهم ورجاساتهم - لقد اتكلوا على تابوت العهد، ولم يطهروا أنفسهم، ولم يصنعوا براً أمام إلههم - وانزعج الفلسطينيون عند سماعهم أن تابوت عهد الله جاء إلى المحلة، وخافوا جداً وقالوا، قد جاء الله إلى المحلة، الإله الذي شق البحر أمامهم وضرب المصريين بجميع الضربات - وتشدد الفلسطينيون في حربهم ضد إسرائيل، وانكسر إسرائيل أمامهم وهربوا كل واحد إلى خيمته. وكانت الضربة عظيمة جداً وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف محارب، وأخذ الفلسطينيون تابوت عهد الرب متكل بني إسرائيل، ومات ابنا عالي الكاهن حفني وفنحاس (١صم ٤:٣-١١، قارن إرميا ٢٦:٦-٧).

وهل شفع تابوت عهد الله في الشعب الذي اتكل عليه حتى تجعلون هذا البيت متكلكم. إني أصنع بهذا البيت الذي دُعي باسمي عليه والذي أنتم متكلون عليه كما صنعت بشيلوه (راجع مزمور ٧٨: ٦٠-٦٤).

وكلم الرب إرميا «وأنت فلا تصلِّ من أجل هذا البيت. ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ولا تلح عليَّ لأني لا أسمعك» (٧:١٦). ولماذا لي كثرة ذبائحهم ومحرقاتهم، وعبادتهم الباطلة... لأني لم أكلم آباءكم ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وذبيحة. بل أوصيتهم قائلاً: اسمعوا صوتي الذي أوصيكم به. فلم يسمعوا، بل ساروا في مشورات وعناد قلبهم وأساءوا أكثر من آبائهم (أعداد ٢١-٢٦، قارن خروج ١٥:٢٦، ٣٢:١٦، تث ٣:٦، مع ارميا ١١:٤، ١٣:١١، خروج ١٩:٥-٦، لا ٢٦:١٢).

وطبقاً لما جاء في (الأصحاح ٢٦) يذكر باروخ الكاتب بأن عظة إرميا أثارت زوبعة واضطراباً بين سامعيه. وصُدم الكثيرون لأسلوب التحدي هذا، والذي يتناقض وفكر قلوبهم، وهو ضمان العون الإلهي لمملكة داود، وضمان حضور الله في هيكل الرب في أورشليم. ومثل سابقيه من الأنبياء تأصلت تعاليم النبي إرميا على تجربة الخروج، وتجارب البرية، وجود الرب وإحساناته للشعب طوال السنين العديدة (قارن تث ٧:٧-٨، ٨:٣، ٢٩:٥).

وقد كان ممكناً أن يفقد إرميا حياته ويقتله الشعب، لولا تعضيد أخيقام بن شافان، فكانت يده مع إرميا (إر ٢٦:٢٤) إذ كان أخيقام ذو نفوذ سياسي عظيم. وقد استخدم الرب أكثر من مرة أفراد هذه الأسرة لإنقاذ إرميا من القتل (إرميا ٣٩:١٤، ٤٠:٥-٧، قارن ٢مل ٢٢:١٢-١٤، إرميا ١:١٨-١٩) لأنه لأجل هذا دعي إرميا بقول الرب «لتقلع وتهدم، وتُهلك وتنقض، وتبني وتغرس» (١:١٠). وقد استمد قوته الفائقة من كلمة الرب (١:٩) «أليست هذه كلمتي كنار يقول الرب، وكمطرقة تحطم الصخر» (٢٣:٢٩).

يشفون كسر بنت شعبي على عثم (على السطح)

ويقولون سلام سلام، ولا سلام (٦:١٤،٨:١١ مع ٥:٣١).

كما كان الأنبياء الكذبة هم أعظم المضايقين، بل المكدرين للنبي إرميا، الذين عُرفوا بوعودهم الكاذبة للشعب عن

قرب العودة من السبي إلى أرض يهوذا، وعن عدم وقوع أية دينونة على الشعب صارخين قائلين سلام سلام حيث لا سلام. محاولين شفاء جراح الشعب المنتهية على السطح (على عثم) بأدوية لا تصل إلى أصل الداء (٦:١٣-١٥، قارن ٥:١٢-١٣ و٣٠ و٣١، ١٤:٣-١٦، ٢٣:٩-٤٠). كما أدان النبي هؤلاء الأنبياء المخدوعين، لأنهم لم يكونوا ضمن جماعة الرب بل هم كذبة: «لذلك هكذا يقول الرب عن الأنبياء الذين يتنبأون باسمي، وأنا لم أرسلهم، وهم يقولون لا يكون سيف ولا جوع في هذه الأرض، بالسيف والجوع يفني أوليك الأنبياء. والشعب الذي يتنبأون له، يكون مطروحاً في شوارع أورشليم من جري الجوع والسيف. وليس من يدفنهم هم ونساؤهم وبناتهم وأسكب عليهم شرهم» (١٤:١٥-١٦).

وطالما حاول الأنبياء الكذبة تعبئة الشعب بالأمل الكاذب الوهمي، خادعين الشعب بالأباطيل، يسرقون الكلمة الواحد من الآخر.

«ليس هكذا النبي الذي يتكلم بالصدق ويصنع البر ويشهد للحق، لأنه ما للتبن مع الحنطة يقول الرب» (٢٣:٢٨). «النبي الذي معه حلم فليقص حلماً. والذي معه كلمتي يقول الرب، فليتكلم كلمتي بالحق. أليست هكذا كلمتي كنار يقول الرب، وكمطرقة تحطم الصخر» (عدد ٢٩). إن كلمة الرب لا تأتي بالسلام على هذا الشعب، بل كسيف قاطع مثل مبضع الجراح الذي يصل إلى مركز المرض اللعين، عديم الشفاء، وتأتي بالشفاء التام. ولأجل هذا يتساءل النبي في حيرة سؤاله الجاد والقاطع (٨:٢٢).

أليس بلسان في جلعاد. أم ليس هناك طبيب

وكانت تنمو في جلعاد (التي في عبر الأردن شرقاً) أشجار البلسان (البلسم). والتي تفرز مادة كالصمغ في لزوجته. وكان لهذا البلسان خواصه الطبية في ذلك الوقت. فكان نفيس الثمن جداً وربما وصلت قيمته إلى ضعف وزنه فضة. وكان البلسان سلعة تصدر إلى كل شعوب العالم القديم (٨:٢٢، ٤٦:١١، ٥١:٨، حزقيال ٢٧:٢٧، تك ٣٧:٢٥، ٤٣:١١).

ويتساءل إرميا ألا يوجد بلسان على الإطلاق، أم لا يوجد الطبيب. ويعبر عن دهشته بالقول «فلماذا لم تعصب بنت شعبي ولماذا يشفون كسرها على السطح» (٨:١١) قائلين سلام (لا بأس) وليس سلام بل مرض قاتل، بل إنها لم تعصب على الإطلاق (والكلمة تعصب تعد ترجمة دقيقة للكلمة العبرية التي تشير بأنه لم يتم شيء بالنسبة لهذا المرض، أي لم يجر ما هو لازم وضروري).

ويكتب إرميا عن مرض الشعب عديم الشفاء فقد كان لهذا الشعب قلب عاص ومتمرد (٥:٢٣). ولم يذعنوا لتعاليم الرب بل صموا آذانهم عن سماع الكلمة المقدسة، بل وصارت لهم كلمة الرب عاراً لا يسرون بها (٦:١٠). وأدرك النبي إرميا أن المشكلة تكمن داخل القلب. ومرض إسرائيل هو للموت وبات هذا واضحاً في أسلوب عبادتهم، حيث وضع الشعب ثقته في المبادىء الدينية الأولية، والسلوك الظاهري السطحي مثل عهد الشعب وولائه لتابوت العهد (٣:١٦) وفريضة الختان (٤:٤) وترديد التوراة نظرياً (٨:٨)، والاهتمام بالذبائح والمحرقات. والاهتمام بالهيكل ومظهره وجماله الخارجي، الأمور التي لم يوصي بها الرب يوم أخرجهم من مصر أرض العبودية (٧:٢١-٢٦). مع عدم الاهتمام بما هو نافع وبناء لحياتهم المثمرة عملياً، مثل إحقاق الحق والعدل، وإنصاف المظلوم والغريب، واليتيم والأرملة، تلك الأمور الجوهرية المتأصلة والمستمدة من محبة الرب، الخالق والفادي «المحبة لله من كل القلب ومن كل النفس وكل القدرة» (٧:٤ قارن تثنية ٦:٥-٩).

بل أكثر من ذلك فإن العلاقات الاجتماعية، قد تصدعت وحدثت بها شروخ عديدة، حتى امتدت إلى علاقة الأخ بأخيه (٩:٤-٦)، وتبددت الثقة بين الناس فيحاول الواحد خداع الآخر والسعي وراء إمرأة صاحبه (٥:٨) كما تبدد

الاهتمام باليائسين من المجتمع (٥:٨) وساد العمى القومي والانبهار بالأنبياء الكذبة وانتشرت العبادة الباطلة في الهيكل، وعلى كل المرتفعات وتحت كل شجرة خضراء.

هذه الشرور كلها ثمار بينة لخطية جذورها كامنة في القلب، القلب الذي يجب أن يكون مركز الولاء والتكريس لله بعبادة مقبولة ومرضية أمامه، شخصها إرميا في مقولة جامعة «القلب أخدع من كل شيء وهو نجيس من يعرفه» (٩:١٧)، إذ لا يوجد مكان يخفي على الله الذي يفحص القلوب والكُلي ويملأ السموات والأرض (٢٣:٢٣-٢٤ قارن مزمور ١٣٩) وعيناه تنظران إلى الحق (٣:٥) إلى العلاقة المؤسسة على الأمانة مع الله وطهارة القلب والعقل.

وبدلاً من ذلك يرى الرب ضلالاً قد استوطن في حياتهم، وصلبوا وجوههم أكثر من الصخر وأبوا الرجوع (٥:١-٣). صار كل واحد كفرس جامح (٨-٦). شعبي لم يعرف قضاء الرب (٨:٧). لقد وضع الرب حداً للأمواج المزبدة الهائجة في البحر، أما إسرائيل فقد ذهب إلى ما بعد الحدود (٥:٢٠-٢٩). صارت خطية الشعب مكتوبة كما بقلم من حديد، وبرأس من الماس، منقوشة على ظهر قلوبهم (١٧:١-٤)، ولا يستطيع الشعب أن يغير من تصرفاته وأعماله الشريرة، مثل الكوشي (الحبشي) الذي لا يستطيع أن يغير شكل جلده أو النمر رقطه (١٣:٢٣)، وصارت خطيتهم أمراً طبيعياً. وتأصلت في حياتهم، ولم يخزوا ولم يعرفوا الخجل (٨:١٢). ليس أحد يتوب عن شره قائلاً ماذا عملت (إرميا ٨:٤-٧). ورغم كل التحذيرات رفض الشعب الرجوع والتوبة وصارت ندامتهم مملة للغاية (٦:١٥) ولابد من عقابهم وتحطيم عبادتهم وتدمير أساسات شرورهم.

ويؤمن إرميا بأن الله يعمل في التاريخ بل هو رب التاريخ وصانعه. ويؤكد ذلك من الإعلان الذي استمده من بيت الفخاري (الأصحاح ١٨).

إرميا في بيت الفخاري

إرسل الله إرميا إلى بيت الفخاري، لا ليقدم عظة في أبواب أورشليم، بل ليستمع لعظة حيث قال له الرب: «قم انزل إلى بيت الفخاري وهناك أسمعك كلامي» (١٨:١).

وكان إرميا مطيعاً كعادته فنزل إلى بيت الفخاري... وإذا هو يصنع عملاً على الدولاب بمهارة فائقة ودقة بأقل مجهود وفي وقت بسيط (عدد ٣).

ففسد الوعاء الذي كان يصنعه الفخاري ربما لصلابة قطعة الطين أو لوجود قطعة من الحصي الصلب بها. لذا أعاد صنعها من جديد، وعمل منها وعاءً آخر. كما حسن في عيني الفخاري أن يصنعه.

أو ليست الطبيعة كلها كقطعة لينة من الطين في يد ذاك الذي صنعها؟ ثم صار كلام الرب إلى إرميا قائلاً: «أما أستطيع أن أصنع بكم كهذا الفخاري يا بيت إسرائيل يقول الرب: هوذا كالطين بيد الفخاري أنتم هكذا بيدي يا بيت إسرائيل» (١٨:٦). وبينما كان النبي ينظر بعناية فائقة إلى الفخاري وعمله، كشف الله عن عينيه ليرى حقيقتين هامتين ليكرز بهما لبيت إسرائيل.

الحقيقة الأولى: أن الله يتمتع بسلطة كاملة لا تقبل الجدل وقدرة وقوة لا تقاومان، ليقيم أمماً وشعوباً وممالك كما يرى لمجده وحسب مسرته.

«أما أستطيع أن أصنع بكم كهذا الفخاري يا بيت إسرائيل يقول الرب... هوذا كالطين بيد الفخاري أنتم هكذا بيدي يا بيت إسرائيل».

إن للرب سيادة كاملة على شعبه، وعلى كل الشعوب والممالك فهو الخالق العظيم، يصنع ما يشاء في خلقه كقصده. ومن يستطيع مجاوبته فيقول: لماذا صنعتني هكذا؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة

واحدة إناءً للكرامة وآخر للهوان.

الحقيقة الثانية: أن الله لا يصدر أحكاماً تعسفية أو بلا رحمة «لك ذراع القدرة، قوية يدك مرتفعة يمينك، العدل والحق قاعدة كرسيك. الرحمة الأمانة تتقدمان أمام وجهك» (مزمور ٨٩: ١٣-١٤) لهذا يريد الرب:

١- إعلان مجده في الرحمة (إرميا ١٨: ٧ و٨) «تارة أتكلم على أمة وعلى مملكة، بالقلع والهدم والإهلاك. فترجع تلك الأمة التي تكلمت عليها عن شرها. فأندم عن الشر الذي قصدت أن أصنعه بها». وأمام الإنسان القدرة والحرية، حتى يختار بين الخير والشر، الحياة والموت، فقد جعله الله سيد المخلوقات ليتصرف كالسيد لا العبد. وأن يخضع الأشياء لنفسه، ولا يخضع نفسه للأشياء. كما صارت للإنسان قيمة أعظم بالخلاص الذي صنعه له الله في الابن الحبيب. وهل لنا أن نتصور هذا الإنسان المحدود يحاول الاستقلال عن الله ولا يحرم من المجد والبهاء؟ إن للسمكة القدرة على السباحة ضد موج البحر فهل في استطاعتها أن تسبح خارج البحر وتحيا؟.... وهل للإنسان أن يتمتع بالبهاء والمجد بعيداً عمن كلله بها؟

يحاول الإنسان البعد عن الله ويقع في شرور كثيرة. ويوم أن يرجع هذا الشرير الذي تكلم الله عليه عن شره، يندم الله عن الشر الذي قصد أن يصنعه به، والكلمة يندم هنا تعني بتحنن ويشفق، فيحدث الغرس والبناء بدلاً من الهدم والإهلاك: «إذا تواضع شعبي الذي دعي أسمي عليهم، وصلوا وطلبوا وجهي، ورجعوا عن طرقهم الرديئة، فإنني أسمع من السماء وأغفر خطيتهم وأبريء أرضهم» (٢أخ ٧: ١٤).

إن الله قادر أن يقيم من الحطام شعباً حياً غيوراً لمجده. كالفخاري الذي استطاع أن يصنع من الطين وعاء آخر كما يحسن في عينيه «وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة» (٢بط ٣: ٩، قارن رومية ٢: ٤).

٢- **إعلان مجده في العدل** (إرميا ١٨: ٩ و١٠) «وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالبناء والغرس فتفعل الشر في عيني فلا تسمع لصوتي، فأندم عن الخير الذي قلت إني أحسن إليها به»، ليست هناك قوة تمنع وتحرم الإنسان من الاستمتاع برحمة الله ونعمته، أقوى من قوة الخطية، ونعمة الله لا تمنح للإنسان غصباً أو كرهاً.

تارة أتكلم على أمة بالبناء والغرس فتفعل هذه الأمة أو هذا الإنسان أو هذه الأسرة «الشر في عيني فلا تسمع لصوتي فأندم عن الخير الذي قلت إني أحسن إليها به» والسؤال الآن هل الله يندم؟ ليس الله إنساناً فيكذب ولا ابن آدم فيندم (العدد ٢٣: ١٩ أ) والفعل يندم هنا يعني تغيير أسلوب التعامل إذ كيف يمتع الله شعباً ببركات رحمته ومحبته، بينما يعيش هذا الشعب في طين الحمأة والخطية والفساد والشرور. كما أن الشطر الثاني ١٩ ب من الآية تفسير للشطر الأول ١٩أ.

سوف يقلع الله ما قصد غرسه ويهدم بناءه. وقد تم هذا بالفعل مع بيت عالي (١صم ٢: ٣)، لذلك يقول الرب إله إسرائيل «إني قلت أن بيتك وبيت أبيك يسيرون أمامي إلى الأبد. والآن يقول الرب حاشا لي، فإني أكرم الذين يكرمونني والذين يحتقرونني يصغرون» (إني قلت.. والآن حاشا لي).

إن الخطية خاطئة جداً، تمنع الإنسان من الاستمتاع بخالقه وفاديه. وتحطم كل سعادة داخله. وتقضي على كل أمل ورجاء عنده.

٣- **دعوة للإصلاح** (ع١١) هكذا قال الرب، هأنذا مُصدر عليكم شراً، وقاصد عليكم قصداً. فارجعوا كل واحد عن طريقه الرديء وأصلحوا طرقكم وأعمالكم «فإن طهر أحد نفسه من هذه، يكون إناء للكرامة، مقدساً نافعاً للسيد، مستعداً لكل عمل صالح» (٢تي ٢: ٢١).

(ع١٢) فقالوا باطل «لأننا نسعى وراء أفكارنا وكل واحد يعمل حسب عناد قلبه الرديء باطلاً». يتحدث النبي

إرميا إلينا في هذا الأمر أو يتخذ وسيلة للإقناع. لأننا نسعى وراء أفكارنا ونسير في طريقنا مهما كلفنا. لقد استُعبد الشعب للخطية وتقست قلوبهم بخداعها قائلين بالفعل، لنا طريقنا وللرب طريقه.

وفي هذا يعلق أحدهم: إن كلمة الله واضحة ونعمته المتفاضلة بالإيمان والمحبة التي في المسيح يسوع واضحة أيضاً، ومن يأخذ لنفسه طريقاً رديئاً مثل هذا، لا يجد قوة تمنعه من ذلك، ولكنه في النهاية يجد هلاكاً أكيداً.

ويذكر النبي إرميا الشعب أن كل مأساة تحل بهم هي نتيجة وثمرة أعمالهم وطرقهم الشريرة. «وأعمالك صنعت هذه لك، هذا شرك، فإنه مرٌ فإنه قد بلغ قلبك» (٤:١٨).

ويرى أحد العلماء أن غضب الله لا يعني تدخل الله في حياة الشعب الخاصة بهم لعقابهم، بل هو انسحاب الله من حياة الشعب، بمعنى ترك الشعب للمعاناة والدمار، أي أنه تدمير ذاتي. ثمر أفكارهم لأنهم لم يصغوا لكلام الرب، بل رفضوا شريعته (قارن ٦:١٩).

وفي ذلك النص الذي يعلن فيه إرميا سيادة الفخاري على الطين، فإن كلمته مصحوبة بدعوة عاجلة، بأن يصغي الشعب لدعوة الرب لهم بالعودة، والرجوع إليه، ويصلح طريقه وأعماله، لأنه يوجد الوقت ويوجد رجاء وسيادة الله لا تبطل مسئولية الإنسان. «نادوا بصوت عال وقولوا لندخل المدن الحصينة».

لأني آتي بشر من الشمال وكسر عظيم

يعد الأصحاح الرابع إعلاناً واضحاً عن قدوم الشر من الشمال. ويشير إرميا على الشعب، أن يهربوا إلى المدن الحصينة طلباً للأمان (٤:٥-٨). وقد رأى النبي الأعداء يقتربون بفرسانهم، الأسرع من النسور. مثل العاصفة المرعبة الخطيرة التي تؤدي للهلاك. ويشير على أورشليم منادياً عليها بالتوبة (٥:١-١٨) ويسرع قلبه بالضربات كلما سمع صوت العدو قادماً، ويرى المأساة وقد سادت (٤:١٩-٢٢، قارن ٥:١٩-٢٢). إنه يسمع صرخة الموت من أورشليم، مثل صيحة الماخض البكرية (٤:٢٩-٣١). ويبكي إرميا وقد تمنى لو كان «رأسه ماء وعيناه ينبوع دموع. فأبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبي» (٨:١٨-٩:٣). وهنا نذكر ما جاء عن يسوع في العهد الجديد وهو يبكي مأساة شعبه ويحس بآلامهم المبرحة. ويعبر النبي عن ذلك بقوله «من أجل سحق بنت شعبي انسحقت، حزنت، أخذتني دهشة (لوعة) من أجل شرهم وطغيانهم جماعة خائنين يشربون الإثم كالماء قووا في الأرض ليس للحق بل للبطل» (٩:٢-٣).

لقد اعتصرته الرؤية المفزعة الرهيبة، حينما رأى الأرض وقد أصابها الخراب من جراء الشر الآتي من الشمال (٤:٢٣ قارن تك ١:٢) وربما تصور تلك الفترة الزمنية من العالم قديماً يوم ما بعد الخراب زمن نوح، حيث لا إنسان أو حيوان أو نبات بل فناء ودمار شامل.

«نظرت إلى الأرض وإذ هي خربة وخالية وإلى السموات فلا نور لها. نظرت وإذا لا إنسان وكل طيور السماء هربت. فنظرت وإذا البستان برية وكل مدنها نُقضت من وجه الرب ومن وجه حمو غضبه» (٤:٢٣-٢٦).

وقوع الدينونة وتأكيد ذلك

تأكد وقوع الدينونة من الآيات أو العلامات المعلنة للنبي والتي كان أصبعها فهماً ما جاء في (١٣:١-١١) عندما أمر الرب إرميا أن يشتري قطعة من كتان ويضعها على حقويه، ثم كلمه الرب ثانية قائلاً: «خذ قطعة القماش على حقويك واطمرها في الصخر عند الفرات ففعل إرميا كما أمره الرب، وكان بعد أيام كثيرة أن الرب قال لإرميا بأن يأخذ المنطقة مرة أخرى من الموضع الذي طمرها فيه وإذا بها قد فسدت ولا تصلح لشيء».

«وصار كلام الرب إلى إرمياء هكذا أفسد كبرياء يهوذا، وكبرياء أورشليم العظيمة». هذا الشعب الشرير الذي

يرفض أن يسمع كلامي ويسلك في عناد قلبه، ويسير وراء آلهة أخرى ليعبدها، ويسجد لها، يصير كهذه المنطقة التي لا تصلح لشيء. وكما تلتصق هذه المنطقة بحقوي الإنسان، هكذا ألصق الرب بنفسه كل بيت إسرائيل وكل بيت يهوذا ليكونوا له شعباً واسماً، وفخراً ومجداً، ولكنهم لم يسمعوا.

مرة أخري يأمر الرب إرميا أن يشتري إبريقاً من الفخار، وينادي على ملوك يهوذا وسكان أورشليم، معلناً دينونة الله العادلة على الشعب، وما اقترفوه من شرور ومفاسد، حيث بنوا مرتفعات للبعل، ليحرقوا أولادهم بالنار محرقات للبعل، ثم يكسر إرميا الإبريق الفخاري أمام أعين الشعب قائلاً: «هكذا قال رب الجنود هكذا أكسر هذا الشعب، وهذه المدينة. كما يكسر وعاء الفخاري بحيث لا يمكن جبره وفي توفة يُدفنون حتى لا يكون موضع للدفن» (الأصحاح ١٩).

لقد كان الهدف من هذه الآيات والعلامات، أن يرجع الشعب إلى الرب، ويتوب عن شروره لكن الشعب زاد في غيه وشروره ونجاساته. وما كان من فشحور إلا أن ضرب إرميا النبي ووضعه في المقطرة إلى اليوم التالي (٢٠:١-٦). ولكن الرب ساهر على كلمته ليجريها. حتى يخرج الحق إلى النور ويسود العدل البلاد، وتتطهر الأمة من كل رجاساتها (١:١٢).

هذا الشعب الذي لم يمتثل لكلمة الرب ولم يرجع عن طرقه الرديئة مدة ثلاث وعشرين سنة (٢٥: ٣٠) يدعوه إرميا النبي للتوبة من السنة الثالثة عشر ليوشيا بن آمون ملك يهوذا، إلى السنة الرابعة ليهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا (٦٠٥ ق.م) وإرميا يكلمهم مبكراً فلم يسمعوا (٢٥:١-٣)، لذا رفض الشعب كل نداء ودعوة أنبياء الرب، حتى لا يسلكوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها، فلم يسمعوا (أعداد ٤-٨) لذلك أتت عليهم هذه النبوة عن فم الرب، بواسطة إرميا أنهم سيسبون إلى بابل بواسطة نبوخذ راصر، ويصيرون دهشاً وصفيراً، ويبيد منهم الرب صوت الطرب وصوت الفرح، صوت العريس وصوت العروس، ونور السراج وتصير الأرض كلها خراباً ودهشاً، وتخدم هذه الشعوب ملك بابل سبعين سنة (٢٥:١١).

وعن السبعين سنة يرى أحد العلماء بأنها فترة تقريبية أي متوسط عمر الإنسان: «أيام سنينا هي سبعون سنة» (مزمور ٩٠:١٠)، وقد انزعج يهوياقيم الملك لهذه النبوة الرهيبة كما أنزعج لسماعه بأنه سيموت موتاً مخجلاً (٣٦:٢٩-٣١ قارن ٣٢:١٨-١٩).

اعترافات النبي بضعفاته وآلامه

وقد وصفت في نصوص عديدة وأوردها العلماء فيما يلي:

١- (١١:١٨-١٢:٦) مثل خروف داجن يساق إلى الذبح.

٢- (١٥:١٠-٢١) جلست وحدي لأنك ملأتني غضباً.

٣- (١٧:١٤-١٨) لا تكن لي رُعباً أنت ملجأي في يوم الشر.

٤- (١٨:١٨-٢٣) حفروا لي حفرة لنفسي، أذكر وقوفي قدامك لأتكلم عنهم بالخير.

٥- (٢٠:٧-١٣) حتى صارت كلمة الرب في قلبي كنار محرقة فمللت من الإمساك.

٦- (٢٠:١٥-١٨) لماذا خرجت من الرحم لأري تعباً وحزناً.

هذه هي الكلمات (الاعترافات) التي تكلم بها إرميا، خلال فترة اختفائه من يهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا، والتي يطلق عليها أحد العلماء بفترة الصمت. إنها كلمات سكبها النبي إرميا من قلب غير مستريح، بل متوجع

يتدفق بالآلام. بل إنها شبيهة باعترافات أوغسطينس التي نطق بها في مناسبات عديدة من حياته، (أو بالحري نقول بأنه تأثر كثيراً باعترافات إرميا). وربما يكون إرميا قد أملاها على باروخ الكاتب رفيقه في الضيقة العظيمة والهروب من وجه الملك العاتي يهوياقيم. وفي هذه الاعترافات نلاحظ أنها شخصية نابعة من الداخل. تحدث بها أمام إله يقف أمامه. وبأمانة وصراحة تامة. وفي بساطة كاملة يعترض على ما لاقاه، ويلاقيه من ألم من خدمته النبوية. وربما تضمنت في ثنايا سطورها بعض المراثي الشخصية، فهو يصلي بل يصرخ من الأعماق من الضيقة التي يعيش فيها. معبراً عن ثقته في النجاة (قارن مزمور ٦) رغم أنه واجه تهديداً بالموت حتى لا يتنبأ (٢٢:١١)، وحتى من أفراد أسرته (٦:١٢).

ومن الأمور التي أزعجت إرميا، رؤيته للمقاومين أنهم يعيشون في سلام، وأن الرب يدعهم يزدهرون. وكما حدث مع حبقوق وجد إرميا إجابة من الرب لشكواه (١٢: ١-٦). بأن عليه أن ينتظر صامداً في مواجهة التعذيب. وفي وقته سيظهر الرب بره (٥:١٢، قارن حب ١:١-٤ مع ٢: ١-٣).

ومثل أي إنسان عادي يتعرض لضعفات من جراء الضيقات (١٥: ٢٠، ٢٠: ١٤-١٨) يعبر عن ألمه ويتساءل: لماذا كل هذا ؟! وفي حيرة يردد: لم أجلس بين المازحين ولم أرتكب جوراً. بل ذهب النبي إلى أبعد من ذلك، بأنه مثل شاة أو خروف سيق إلى الذبح. ويبسط أمره أمام الرب حتى ينتقم من مقاوميه، ومريدي نفسه ليهلكوها ويرى نهايتهم (١١: ٢٠، ١٢: ١-٣، ١٧-١٨، ١٨: ١٩-٢٣، ٢٠: ١١-١٢).

وهنا ينتهر الرب إرميا على مرثاته المُرّة المبنية على سلوك أناني، نتيجة ضعف شخصي، ذلك السلوك الذي سبق وانتقده هو نفسه في الناس الذين دعاهم أن يرجعوا إلى الرب. إنه يقف الآن محتاجاً إلى ذات الكلمات المقدسة البانية. ويأتيه الجواب: «في هذا أجابني الرب إن رجعت أرجعك فتقف أمامي، وإذا أخرجت الثمين من المرذول فمثل فمي تكون. هم يرجعون إليك وأنت لا ترجع إليهم، وأجعلك لهذا الشعب سور نحاس حصيناً. فيحاربونك، ولا يقدرون عليك، لأني معك لأخلصك وأنقذك يقول الرب فأنقذك من يد الأشرار وأفديك من كف العتاة» (١٥: ١٩-٢١).

إن هذه الصلوات أو الاعترافات تعبر عن آلام النبي، الذي دعي دعوة خاصة ليسير في وادي ظل الموت، وادي الظلام الدامس (مزمور ٢٣: ٤) مع التأكيد الإلهي «أنا معك» والضمان الأكيد بأن تبريره قريب.

حقاً إن الرب كان مشاركاً له في آلامه التي تُعد اختباراً حياً لشركته مع الله، وصار اهتمام الله هو اهتمام النبي، وانعكست عواطفه (سواء العواطف الغاضبة أو المحبة) عبر حياته اليومية وخدمته بين شعبه.

ويرى بعض العلماء أن مفتاح فهم اعترافات إرميا يتمثل في دعوته للخدمة (١: ١-١٠) والتي تذكرنا بدعوة موسى قديماً (خروج ٣). (والأعداد ٤-٨) من الأصحاح الأول تكشف عن صراع إرميا الإنسان داخل نفسه مع دعوته النبوية. فهو إنسان خجول مرهف الحس بطبيعته. ودعوة الله له قبل أن يولد ليكون نبياً للشعوب (والأعداد ١: ٩-١٠) توضح أن إرميا كان مثل موسى الذي قبل عنه من الرب: «أضع كلامي في فمه» (قارن تث ١٨: ١٨، قارن إرميا ١: ٩) والرؤى وتفسيرها (١: ١١-١٨) تبين الرسالة الهامة التي كان على إرميا أن يعلنها. تلك الرسالة التي تثير عداء الشعب، فدينونة الله قضاؤه ضد أرض يهوذا كما أعلن الله له ذلك، إنه يحتاج إلى تعضيد عظيم وكبير وليس فقط التأييد أو التعضيد الإنساني، لذلك يخاطبه الرب بالقول: «لا يقفون أمامك. لأني أنا معك لأنقذك يقول الرب» (١: ٨ قارن عدد ١٩).

لقد كانت دعوته عكس طبيعته الحساسة، إذ كان راضياً بحياته البسيطة المحاطة بأقاربه ومعارفه، متمتعاً بتأييدهم الإنساني له. وكان راغباً في العيش في سلام مع الجميع. محباً لهم وحانياً عليهم. لكن أصبح عليه الآن

«أن يكون إنسان خصام ونزاع لكل الأرض» (١٥:١٠)، محاط بالأعداء بمفرده لأن يد الرب عليه. كما أنه منع من الزواج فلن يكون له أولاد، لذلك شعر بألم الوحدة الذي كان ثقيلاً على قلبه (١٦:١-١٣) وعبر عن آلامه وإحساسه في هذه الاعترافات الشخصية، كما عبر عن تطلعه لخلاص الله الذي سيحقق له انتصاراً شاملاً، وليس انتصاراً شخصياً. بل تتحقق النصرة في طاعة الرب وإحقاق الحق والعدل، ويعم البلاد جميعاً السلام الشامل المبني على بر الله.

سلتا التين الجيد والتين الرديء

ورد في الأصحاح ٢٤ عن إرميا قوله: «أراني الرب وإذا سلتا تين موضوعتان أمام هيكل الرب، بعدما سبي نبوخذ راصر ملك بابل يهوياكين (يكنيا) بن يهوياقيم ملك يهوذا ورؤساء يهوذا والنجارين والحدادين من أورشليم وأتى بهم إلى بابل» (٢٤:١).

وحري بنا قبل دراسة هذه الرؤيا وما تتضمنه من معانٍ أن ندرس الخلفية التاريخية لهذه الرؤيا.

لم يتمكن نبوخذراصر من دخول يهوذا مباشرة، بل بدأ في حث بعض الفرق من الشعوب المجاورة، أن يفسدوا يخربوا الأرض، وخلال تلك الفترة مات يهوياقيم تاركاً ابنه يهوياكين، في سن الثامنة عشر ليدفع ثمن أخطاء أبيه، وسياسته الرعناء غير الحكيمة. ويطلق على يهوياكين في بعض المواضع كنياهو أو يكنيا (إرميا ٢٢:٢٤-٢٨). وجاء عن يهوياكين أنه صنع الشر مثل أبيه رغم الفترة القصيرة التي تولي فيها الحكم (٢أخ ٣٦:٨-٩، ٢مل ٢٤:٨-١٠). وفي عام ٥٩٨-٥٩٧ ق.م قاد نبوخذ نصر جيشاً جراراً لغزو يهوذا، وأسر يهوياكين بعد ثلاثة شهور من توليه الحكم. ونهب الهيكل وكل كنوز الملك وأخذ الملك الصغير وأمه إلى السبي في بابل، مع كل الشرفاء والنبلاء من الشعب، ومنهم حزقيال النبي. وهي تعد أول مجموعة تؤخذ إلى بابل كسبايا (٢مل ٢٤:١٠-١٧).

وعين نبوخذ نصر ملك بابل متنيا الابن الأصغر ليوشيا ملكاً على يهوذا، عوضاً عن يهوياكين، وغير اسمه من متنيا إلى صدقيا وهو آخر ملوك يهوذا، واستمر ملكاً إحدى عشر سنة من عام ٥٩٧-٥٨٦ ق.م وقضى إرميا النبي بقية حياته النبوية في أورشليم (قارن الأصحاحات ٢١:٢٤)، والتي تعكس حكم صدقيا عم يهوياكين مع مذكرات باروخ الكاتب (من أصحاح ٢٦:٤٥).

وعلى النقيض من يهوياقيم المستبد والعاتي. كان صدقيا معتدلاً بل وضعيفاً، مما أتاح للرؤساء الذين من حوله فرصة تحقيق مآربهم الشخصية، وعمل الشر في عيني الرب ونجس الهيكل بالعبادة الوثنية (٢أخ ٣٦:١٢و١٤، إرميا ٣٧:١-٢) ولم يحكم صدقيا بالعدل (إرميا ٢١:١١-١٢) والتف حوله الأنبياء الكذبة (٢٧:١٢-٢٢).

ورأى إرميا في رؤياه (أصحاح ٢٤) سلتي تين موضعتين أمام هيكل الرب. في السلة الأولى تين جيد جداً مثل التين الباكوري، وفي السلة الأخرى تين رديء جداً لا يؤكل من رداءته.

سلة التين الجيد

كان كلام الرب إليّ قائلاً: (٢٤:٤-٧) «كهذا التين الجيد هكذا أنظر إلى سبي يهوذا الذي أرسلته إلى أرض الكلدانيين للخير. أجعل عيني عليهم للخير وأرجعهم إلى أرضهم أرض يهوذا. وأبنيهم ولا أهدمهم، وأغرسهم ولا أقلعهم. ويكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلهاً لأنهم يرجعون إليّ بكل قلبهم».

سلة التين الرديء

(٢٤:٨-١٠) الذي لا يؤكل من رداءته. هكذا قال الرب «أجعل صدقيا ملك يهوذا ورؤساءه وبقية أورشليم الباقية في هذه الأرض، والساكنة في أرض مصر (بالهروب إليها) وأسلمهم للقلق والشر... وأرسل عليهم السيف

والجوع والوبأ حتى يفنوا».

هذه الرؤية النبوية يمكن فهمها بوضوح بدراسة (الأصحاح) كما يرى علماء الكتاب. وتعد رسالة تشجيع وتعضيد للمسبيين البعيدين عن أرض آبائهم وفي أيضاً رسالة توبيخ للشعب الباقي في يهوذا في أورشليم (حيث الهيكل) والمقيمين آمنين في بيوتهم. ورغم ذلك ابتعدوا عن العبادة الحقيقية بل وعبدوا البلعيم والعشتاروث الآلهة الوثنية. ورغم كل هذا اعتقدوا أنهم أفضل وأسمى من إخوتهم الذين حملوا إلى السبي في بابل. وحقيقة الأمر أنهم هم التين الرديء، الذي لا يؤكل من رداءته.

وعن المسبيين من يكنيا (الذي هو يهوياكين) بن يهوياقيم ملك يهوذا يقول الرب: هم التين الجيد جداً حيث كان بين المسبيين أيضاً حزقيال ودانيال (حز ١:١ ، دانيال ١:١-٧) وعن هؤلاء المسبيين يقول الرب (إر ٢٤:٦): «أجعل عيني عليهم للخير وأرجعهم إلى أرضهم وأبنيهم ولا أهدمهم، وأغرسهم ولا أقلعهم». وربما كان السبي مكان تهذيب وتقويم وحافزاً للتمسك بإله السماء والأرض (قارن ٢مل ٢٥:٢٧-٣٠، إرميا ٥٢:٣١-٣٤، مع ٣٢:٤١، ٣٣:٧، ٣٠:٢٢، ٣١:٣٣، ٣٢:٣٨) وطريق تلمذة حقيقية وشهادة حقيقية لإلههم في الأرض الغريبة (قارن إش ٤٣:١٠، ٤٤:٨، ٤٩:٦، إرميا ٢٩:١١-١٤).

أما صدقيا ملك يهوذا ورجاله ورؤسائه، وبقية الشعب في هذه الأرض يهوذا والذين فروا هاربين إلى مصر أسلمهم للقلق والشر. وأرسل عليهم السيف والجوع والمرض حتى يفنوا. هؤلاء هم التين الرديء الذي لا يؤكل بل يصير للعنة (تث ٢٨:٢٥، ٣٧، قارن إرميا ٢٩:١٨، ٢٢، مزمور ٤٤:١٣، ١٤).

رسالة إرميا إلى المسبيين في بابل

جاء في (الأصحاح ٢٩) أن النبي إرميا أرسل من أورشليم إلى المسبيين في بابل (الذين سباهم نبوخذ راصر من أورشليم إلى بابل) بيد العاسة بن شافان وجمريا بن حلقيا، الذي أرسلهما صدقيا ملك يهوذا إلى نبوخذنصر ملك بابل، حاملين معهما في نفس الوقت الجزية، وليؤكدوا ولاء صدقيا ملك يهوذا للملك بابل نبوخذنصر بعد سماعه عن الثورة التي جاء عنها في (الأصحاح ٢٧). وربما كان العاسة بن شافان، هو الذي أخذ دور إرميا زمن القبض عليه بعد عظة الهيكل (٢٦:٢٤). كما أن والده شافان هو الذي كشف عن سفر الشريعة في هيكل الرب للملك يوشيا (٢مل ٢٢:٨) وحلقيا رئيس الكهنة (والد جمريا) هو الذي عثر على سفر الشريعة في بيت الرب وقدمه لشافان. ولقد ورث ابنا حلقيا وشافان من أبويهما الاهتمام بالكتب المقدسة، فنجد في (٣٦:٥)، جمريا وهو يتوسط لدى يهوياقيم ملك يهوذا حتى لا يحرق درج السفر.

حمل العاسة بن شافان وجمريا بن حلقيا رسالة إرميا النبوية إلى المسبيين في بابل قائلاً: «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل (٢٩:٤). ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها ولدوا بنين وبنات واكثروا.. واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها، وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام (٢٩:٥-٧، قارن عزرا ٦:١٠، رومية ١٣:١، ١تي ٢:٢). بمعنى أن إرميا يدعوهم لحياة الاستقرار وعدم تشتيت الذهن، والانشغال بالتفكير فيما سمعوه من الأنبياء الكذبة، أن سبيهم سينتهي سريعاً، وأنهم سيعودون إلى وطنهم، إلى أرض يهوذا، لأنه هكذا قال رب الجنود إلى إسرائيل: «لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم وعرافوكم... لأنهم إنما يتنبأون لكم باسمي بالكذب وأنا لم أرسلهم يقول الرب» (٢٩:٨-٩)، «وعند تمام سبعين سنة أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح لأني مفتكر أفكار سلام لا شر. لأعطيكم آخرة ورجاء.... وأرد سبيكم وأجمعكم من كل الأمم، ومن كل المواضع التي طردتكم إليها، يقول الرب وأردكم إلى الموضع الذي سبيتكم منه» (أعداد ١٠-١٤، قارن ٢٥:١١-١٢).

وعن الأنبياء الكذبة ورد عنهم الكثير في (أصحاحي ٢٧، ٢٨) من السفر. ويعد (الأصحاح ٢٩) امتداداً لهما، وذكر اثنان من الأنبياء الكذبة آخاب بن قولايا وصدقيا بن معسيا وقضاء الرب عنهما. هأنذا أدفعهما إلى يد نبوخذ راصر ملك بابل، فيقتلها أمام عيونكم» (٢١:١٩). وقد قلاهما ملك بابل بالنار، لأنهما عملا قبيحاً في إسرائيل، فقد زنيا بنساء أصحابهما، وتكلما باسم الرب كلاماً كاذباً لم أوصهما به. «وأنا العارف والشاهد يقول الرب» (٢٢ب:٢٣).

وقد تضمنت رسالة النبي إرميا إلى المسبيين قضاء الرب ودينونته على شمعيا النحلامي الذي تنبأ للشعب والرب لم يرسله وجعل الشعب يتكلمون على الكذب (٢٩: ٣٠-٣٢).

وحدث خلاف حاد بين إرميا نبي الرب، وبين أنبياء عامة الشعب (الكذبة) الذين لهم صلة بالبلاط الملكي (إرميا ٢٨)، وتقدم حننيا واحد منهم وأخذ النير عن عنق إرميا النبي، وكسره أمام كل الشعب وتكلم قائلاً هكذا قال الرب. هكذا أكسر نير نبوخذ ناصر ملك بابل في سنتين من الزمان عن عنق كل الشعب، وأرد إلى هذا الموضع آنية بيت الرب، التي سباها ملك بابل إلى بابل من أورشليم، وكل سبي يهوذا الذين ذهبوا إلي بابل يقول الرب (٢٨:١-١١). بعد هذا صار كلام الرب إلى إرميا النبي قائلاً: «إذهب وكلم حننيا قائلاً: هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل، قد جعلت نيراً من حديد على عنق كل هؤلاء الشعوب ليخدموا نبوخذ ناصر ملك بابل» (أعداد ١٢-١٥) كما أعلن إرميا لحننيا حكم الرب «إن الرب لم يرسلك وأنت قد جعلت هذا الشعب يتكل على الكذب. هذه السنة تموت لأنك تكلمت بعصيان على الرب، فمات حننيا النبي في تلك السنة في الشهر السابع»، أي بعد شهرين من الزمان (قارن ٢٨:١ و٢٧) وبهذا ثبت صدق نبوة وإرسالية إرميا من الرب لشعبه وأدرك الشعب أن الرب قد أرسله حقاً (عددي ٨-٩، قارن أع ٥:٣٩).

حرق أورشليم والاستيلاء عليها

بلغت الأحوال السياسية غير المستقرة ذروتها عام ٥٨٨ ق.م وعندما اعتلى عرش مصر ملك جديد هو فرعون حفرع (إرميا ٤٤: ٣٠). وقد بدأ منذ توليه، يضرم نفس السياسة المتعنتة، التي كانت لفرعون نخو. فبدأ تحركه نحو آسيا ليخضعها تحت سيطرته. وقد بعث هذا التحول في الأحداث الرجاء في الأمم التي ترزح تحت نير البابليين وبدأت ثورته في الانتشار والتي كانت متمركزة في عمون ويهوذا (حز ٢١: ٢٠)، وبدأ نبوخذ ناصر في صد هذه الثورة وهذا الزحف، وأسس قاعدته العسكرية في ربلة التي في أرض حماه بسوريا على نهر العاصي Orantes (٢مل ٦:٢٥ و٢٠) وكانت ربلة قبلاً مركزاً لقوات فرعون نخو العسكرية (٢مل ٣٣:٢٣، قارن إرميا ٩:٤٣-١٣، ٢٥:٤٦، حز ٣:٢٩) وحاصر نبوخذ نصر أورشليم عام ٥٨٨ ق.م. وترجع إلى تلك الفترة رسائل لخيش التي عثر عليها علماء الآثار ما بين عام ١٩٣٢ - ١٩٣٨ م متضمنة إشارات عديدة عن النشاط العسكري في لخيش وعزيقة[1] (إرميا ٣٤:٦-٧). كما تلقى هذه الرسائل بعض الضوء على أحوال البلاد خلال الغزو البابلي، والتي جاء عنها بأجلى بيان ووضوح في الأصحاح الثاني والرابع من سفر المراثي.

ولم يتزعزع النبي إرميا لحصار أورشليم بواسطة نبوخذ نصر، عندما أرسل الملك صدقيا رسله إلى إرميا يخبره قائلاً: «اسأل الرب من أجلنا لأن نبوخذ راصر ملك بابل يحاربنا، لعل الرب يصنع معنا حسب كل عجائبه فيصعد عنا (٢١:١-٢). وكان الملك صدقيا يرجو، أن يصنع الرب آية لتخليص أورشليم من قبضة ملك بابل كما حدث وقت حصار سنحاريب ملك أشور أيام أشعياء النبي ٧٠١ ق.م (إش ٣٧:٣٦-٣٧، ٢مل ١٩:٣٥ و٣٦).

لكن صدقيا ملك يهوذا لم يتلق كلمة طيبة مطمئنة من النبي إرميا بل أخبره بأن الرب سيحارب ضد المدينة قائلاً:

(1) J.B. Pritchard, ANET (2nd.ed.)pp.321-322
Thomas D.Winton, ed. Document from old Testament Times, pp.212-216.

«أنا أحاربكم بيد ممدودة، وبذراع شديدة، وبغضب وحمو وغيظ شديد» (٢١:٥). وستكون مقاومتهم العسكرية بغير طائل، بل إن إرميا النبي نصح مواطني يهوذا بأن يهرعوا إلى البابليين إذا أرادوا النجاة: «لأنه هكذا قال الرب هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة، وطريق الموت، الذي يقيم في هذه المدينة يموت بالسيف والجوع والوباء، والذي يخرج ويسقط إلى الكلدانيين الذين يحاصرونكم يحيا وتصير نفسه له غنيمة» (٢١:٨-٩).

وأعلن الرب دينونته العادلة على يهوذا وصدقيا ملكها «هأنذا أدفع هذه المدينة ليد ملك بابل، فيحرقها بالنار، وأنت (يا صدقيا) لا تفلت من يده بل تمسك إمساكاً وتُدفع ليده» (٣٤:٢-٣). وفعلاً قتل ملك بابل بني صدقيا في ربلة أمام عينيه، وقتل كل أشراف يهوذا، وأعمى عيني صدقيا وقيده بسلاسل نحاس ليأتي به إلى بابل. أما بيت الملك وبيوت الشعب فأحرقها الكلدانيون بالنار ونقضوا أسوار أورشليم (٣٩:٦-٨، ٢مل ٢٥:٨-١١) هذه هي ثمرة الشرور والنجاسة، التي كان يحياها الشعب، في عصيان وتمرد، وغلاظة قلب بعيداً عن شرائع الرب وأحكامه ووصاياه، ومن أجل أنهم تركوا عهد الرب إلههم وسجدوا لآلهة أخرى وعبدوها (إرميا ٢٢:٨-٩، ٣٢:٢٦-٣٥، ٣٤:١٨-١٩، قارن ٢أخ ٣٦:١١-١٦).

إرميا في بيت السجن

عندما سمع الكلدانيون (جيش نبوخذ ناصر) الذين كانوا يحاصرون أورشليم، بخبر صعود جيش فرعون حفرع من مصر هموا بترك مدينة أورشليم (٣٧:٥) وكان هذا بارقة أمل ورجاء للملك صدقيا، وشعب يهوذا الساكنين في أورشليم. وكان صدقيا الملك قد طلب من إرميا النبي المشورة والصلاة لأجله، ولأجل شعبه. وكان جواب الرب: «هكذا تقولون لملك يهوذا الذي أرسلكم إلي لتستشيروني: «ها إن جيش فرعون الخارج إليكم لمساعدتكم يرجع إلى أرض مصر. ويرجع الكلدانيون (البابليون) إلى مدينة أورشليم ويأخذونها ويحرقونها بالنار» (٣٧:٧-٨).

وجاء في إحدى رسائل لخيش (Ostracon No. 6) أن الرؤساء أخبروا الملك صدقيا أن النبي إرميا يرخي أيادي العسكر والشعب، ويدعوهم للاستسلام واللجوء إلى بابل للنجاة (٣٨:٤-٥)، وبينما كان إرميا متوجهاً إلى بيته في عناثوث لمهمة معينة، قبض عليه وضرب وطرح في السجن (٣٧:١١-١٥) والأعداد من (١٦-٢١) تدعو للرثاء والشفقة، وربما أعتقد الملك صدقيا أن إرميا النبي كان على صواب، لكنه كان ضعيفاً وهزيلاً أمام رؤسائه وأمرائه. فقد دعا الملك صدقيا إرميا النبي إلى بيته سراً وسأله وقال: هل توجد كلمة من قبل الرب؟ فأجابه إرميا مؤكداً كلماته السابقة بأنه سيدفع ليد ملك بابل.

في هذا قال أحد المفكرين: «إن الإنسان ليشعر بالأسى تجاه صدقيا ويهوذا وليس تجاه إرميا النبي المطروح في السجن. لأنه وهو الملك إلا أنه سجين أفكاره المظلمة حالكة السواد. ولا يزيد عن كونه دمية بين رؤسائه وأمرائه. إنه السجين بالفعل وليس إرميا وإن كان في دار السجن، لقد تحدث إرميا إليه بروح هادئ ونغمة حميمة ملؤها الشفقة، مذكراً إياه بأن كلمات التطمين التي تحدث بها أنبياء الشعب الكذبة لم تخلصهم. وأين هم الآن (عدد ١٩). واستجاب الملك صدقيا لطلب إرميا أن ينقله إلى دار السجن. ولا يرجع إلى بيت يوناثان الكاتب فلا يموت هناك.

وتآمر الرؤساء فيما بينهم على قتل إرميا لأنهم رأوا فيه شخصاً يشجع الشعب على الاستسلام وعدم المقاومة أو الوقوف ضد جيوش ملك بابل (٣٨:١-٣) «وقالوا للملك ليقتل». ولم يجد الملك بداً من تسليم إرميا إليهم قائلاً: «ها هو بيدكم لأن الملك لا يقدر عليكم في شيء» (عدد ٥). فأخذوا إرميا ودلوه بحبال في الجب وإذ لم يكن فيه ماء بل وحل غاص إرميا في الوحل، وتُرك ليموت في الجب، لولا تدخل رجل خصي حبشي لدى الملك، الذي أمره برفع إرميا من الجب ووضعوه ثانية في دار السجن (٨-١٣) وللمرة الثانية دعا صدقيا ملك يهوذا، إرميا النبي سراً، وعقد معه اجتماعاً في بيت الرب (٣٨:١٤-٢٨) أطلعه فيه إرميا بكل إعلانات الرب له. وكان هذا آخر اجتماع

بين الملك صدقيا والسجين إرميا. لكنه لم يصغ لكلمات النبوة من فم النبي إرميا، وبعد وقت قصير دخل البابليون إلى مدينة أورشليم، وأحرقوها بالنار، وحملوا كل النبلاء والفهماء والحكماء من الشعب وكل المهرة والصناع إلى السبي في بابل وتركوا الفقراء البؤساء في أرض يهوذا، «ومن مساكين الأرض كرامين وفلاحين» (٢مل ٢٥: ٩-١٢).

وتعد قصة الملك صدقيا ملك يهوذا قصة مأساوية تتدفق بالمرارة والخزي. فقد حاول الفرار من أورشليم وقُبض عليه في تخوم أريحا وأخذ للسبي إلى نبوخذ نصر في ربلة حيث الإدارة العامة، وكان عقابة فوق كل تصور وإدراك فقد شاهد قتل أبنائه أمام عينيه. ثم قُلعت عيناه بعد ذلك وأخذ في سلاسل إلى بابل (٢مل ٢٥: ٤-٧)، ذلك لأنه عمل الشر في عيني الرب إلهه، ولم يتواضع أمام إرميا النبي من فم الرب، وتمرد على الملك نبوخذ ناصر... وصلّب عنقه وقوى قلبه عن الرجوع إلى الرب إله إسرائيل، حتى أن رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب رجاسات الأمم، ونجسوا بيت الرب واستهزأوا برسل الله، وتهاونوا بأنبيائه، «حتى حمي غضب الرب وثار غضبه على شعبه فلم يكن شفاء» (٢أخ ٣٦: ١٢-١٦).

أما عن إرميا النبي فقد أوصى به نبوخذ ناصر رئيس الشرط خيراً، قائلاً له: «خذ إرميا وضع عينيك عليه، ولا تفعل به شيئاً رديئاً. بل كل ما يكلمك هكذا إفعل معه» (٣٩: ١١-١٢) وحل رئيس الشرط نبوزرادان إرميا النبي من قيود السلاسل التي على يديه وقال لإرميا «كل الأرض هي أمامك فحيثما حسن وكان مستقيماً في عينيك أن تنطلق فانطلق إلى هناك» (٤٠: ١-٤) وأعطاه رئيس الشرط زاداً وهدية وأطلقه (عدد ٦).

وماذا بعد الدينونة

لقد أيقن النبي منذ بدء دعوته ونبوته، أن كلمة الرب ليست للقضاء والدينونة فقط، أو للهدم والقلع، بل للغرس والبناء أيضاً. لقد أعلنت الدينونة بالكلمة النبوية على فم النبي إرميا، وكان الرب ساهراً على كلمته ليجريها، ليقيم الشعب ثانية على أساسات راسخة متينة مبنية على الطهر والنقاوة وقداسة الرب (إرميا ٢٤: ٦-٧، ٤٢: ١٠-١٢، راجع سفر التعزية في الأصحاحات ٣٠-٣٣). إنه ليدرك الإنسان خطأه ويعود إلى الرب إلهه فيرحمه.

حاجة الإنسان الماسة

في وقت ساد فيه الظلام وكل القتام شعب يهوذا، وشعروا في يأس أنه لن يأتي عليهم غد، واكتنفتهم المأساة الخارقة بعدم الرجاء (مراثي ٤: ١٠، إرميا ٣: ٢١) صارت كلمة الرب إلى إرميا باعثاً للرجاء الكبير له، ولكل الشعب، فبينما كان إرميا في السجن كانت كلمة الرب إليه بأن يشتري من ابن عمه حنمئيل بن شلوم حقله الذي في عناثوث بلدته التي في أرض بنيامين، والتي تقع في منطقة الغزاة لأن لإرميا حق الفكاك والإرث. واشترى إرميا الحقل وهو بعد في السجن كقول الرب له، ودفع ثمنه لابن عمه وكتب الصك وختمه، وأشهد شهوداً أمام كل اليهود الجالسين في دار السجن (٣٢: ٦-١٢) «لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل سيشترون بعد بيوتاً وحقولاً وكروماً».

إنها دعوة وشهادة بالرجاء المنتظر في الرب بالعودة والاستقرار ثانية في أرض يهوذا أرض الآباء، والآمال المرجوة، والمحققة بنعمة خلاص الرب للشعب من أرض سبيهم (٣٢: ١٣). «لأنه هكذا قال إله إسرائيل. هأنذا أجمعهم من كل الأرض التي طردتهم إليها بغضبي وغيظي وأردهم إلى هذا الموضع وأسكنهم، ويكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلهاً... وأفرح بهم لأحسن إليهم وأغرسهم في هذه الأرض بالأمانة بكل قلبي وبكل نفسي... فتُشترى الحقول في هذه الأرض التي تقولون إنها خربة بلا إنسان وبلا حيوان. وقد دُفعت ليد الكلدانيين. يشترون الحقول بفضة ويكتبون ذلك في صكوك ويختمون ويشهدون شهوداً في أرض بنيامين وحوالي أورشليم وفي مدن يهوذا، ومدن الجبل، ومدن

السهل، ومدن الجنوب لأني أرد سبيهم يقول الرب» (٣٢: ٣٦-٤٤).

إنه رجاء مؤكد في الرب فقط عليهم أن يرجعوا إلى الرب مخلصهم الذي أخرجهم في القديم من أرض العبودية، أرض مصر بآيات وعجائب بيد شديدة وذراع ممدودة (٣٢: ٢٠-٢٢) بالتوبة عن خطيتهم (٥: ٢٢-٢٣، ٨: ٧، ١٨: ١٣-١٦) التي تتمثل في حياة الطاعة للرب (٨: ٦، ٣١: ١٩، ٥: ٣، ٩: ٥، ٣٤: ١٥) وحياة البر (٣: ١٢-١٤، ٤: ١-٤، ١٨: ١١، ٣١: ١٨-١٩).

وعندما يتحدث النبي عن صعوبة بل استحالة تغيير الكوشي (الحبشي) لجلده أو النمر رقطه، فهو لا يتحدث عن قدرة الله على الصفح، بل يتحدث عن معرفته وإدراكه لطبيعة الشعب المعاند والصلب الرقبة، عن أنهم حكماء في فعل الشر، وصعوبة تعلمهم لحياة الطاعة لإلههم. إن حاجتهم الماسة هي للتذلل قدام الرب والتوبة الصادقة (٣: ٢٢-٢٥، ١٤: ٧-١٠، ١٩-٢٢، قارن هوشع ٦: ١-٣، ١٤: ٢-٣) فبالرجوع والتوبة أمام الرب، سيتحقق لهم الطمان وحياة الاستقرار (٣: ١٥-١٨، ١٦: ١٤-١٥، ٢٣: ٧-٨، ١٨: ٢٤، ٣١: ٨-١٤، ٢٧-٢٨، ٣٥-٤٠، ٣٣: ٦-٢٦). إنها دعوة الرب لهم لتجديد وتطهير القلب وليس عودة للعبادة الطقسية الظاهرية، لأن الرب فاحص القلوب والكُلى (١١: ٢٠، ١٦: ١٧، ١٧: ١٠، ٢٠: ١٢، ٢٩: ٢٣). والإصغاء لصوته أفضل من الذبائح والمحرقات (٦: ٢٠، ٧: ٢٢-٢٣، ١١: ١٥). «وقد عبر النبي إرميا عن فم الرب، في كلمات سطرها عن مسرة الرب قائلاً: «هكذا قال الرب لا يفتخرن الحكيم بحكمته، ولا يفتخر الجبار بجبروته، ولا يفتخر الغني بغناه، بل بهذا ليفتخرن المفتخر بأن يفهم ويعرفني أني أنا الرب الصانع رحمة وقضاء وعدلاً في الأرض. لأني بهذا أسر يقول الرب» (٩: ٢٣-٢٤).

البقية ستُبنى

الكلمة التي تحدث بها الرب إلى نبيه إرميا عن البقية الأمينة المتعلقة بإلهها، رغم نار التجربة التي اجتازت فيها زمن سبيها: «ها أيام تأتي يقول الرب. وأرد سبي شعبي إسرائيل ويهوذا يقول الرب. وأرجعهم إلى الأرض التي أعطيت آباءهم فيمتلكونها» (٣٠: ١-٣). «هكذا قال الرب لإرميا قد وجد نعمة في البرية (السبي) الشعب الباقي عن السيف، إسرائيل الذي سرت لأريحه... محبة أبدية أحببتك من أجل ذلك أدمت لك الرحمة. سأبنيك بعد فتبنين، تغرسين بعد كروماً في جبال السامرة» (٣١: ١-٥) ولا يسمع بعد صوت راحيل في الرامة وهي تبكي بمرارة على أولادها وترفض التعزية عنهم لأنهم ليسوا بموجودين لأنهم يرجعون بفرح وابتهاج عوضاً عن الألم والضيق.

إنها راحيل زوجة يعقوب التي ماتت حين تعسرت في ولادة بنيامين وهي أم يوسف (تك ٣٥: ١٦-٢٠، ٤٨: ٧) وحدد قبرها في العصر المسيحي في الطريق ما بين أورشليم وبيت لحم (أي شمال بيت لحم بميل واحد). ويستخدم اسم راحيل هنا تعبيراً عن الحزن القومي الذي استولى على كل أم حبيبة ومحبة، كما يُسمع صوت أفرايم من الرب. وهو ينتحب ويخاطب الرب إلهه قائلاً: «أدبتني فتأدبت كعجل غير مروض توبني فأتوب». والمعنى الدقيق لهذه الكلمات توبني فأتوب أي ارجعني، وارحمني برأفتك من هذا السبي الذي سحقني. لأنك أنت الرب إلهي وتسبيحتي (٣١: ١٨ مع عدد ١٩، راجع أيضاً ١٧: ١٤ ومزمور ٨٠: ٣ و٧ و١٩) من أجل ذلك يقول الرب عن أفرايم «حنت أحشائي إليه رحمة أرحمه» (٣١: ٢٠). وستُبنى المدن الخربة (إرميا ٣١: ٢٧-٣٠، حزقيال ٣٦: ٩-١١، هوشع ١: ١٠، ٢: ٢٣) وتتحد يهوذا مع إسرائيل (٣: ١٨، ٥٠: ٤، إش ١١: ١١-١٤، حزقيال ٣٧: ١٥-٢٤، هوشع ١: ١١). لأن دينونة الله وقضاءه كما أنها للقلع والهدم هي أيضاً للبناء والغرس (٣١: ١٨، ١: ١٠، ١٨: ٧ و٩، ٢٤: ٦) ولن يحمل الأبناء فيما بعد من إثم آبائهم ولن يتردد فيما بينهم المثل الشعبي القائل «الآباء أكلوا حصرماً وأسنان الأبناء ضرست» (٣١: ٢٩) والكلمات هنا كما يرى أحد العلماء تشير إلى الأبناء الذين ولدوا في أرض المعاناة والضيق. وكل كرب وألم في أرض سبيهم وحملوا من إثم آبائهم في هذه الأرض الغريبة بعيداً عن أرض يهوذا

التي تفيض لبناً وعسلاً (قارن حزقيال ١٤:١٣-٢٠، ٨:١١-٣٢).

العهد الجديد (٣١:٣١-٣٤)

يمثل هذا النص أهم النصوص الواردة بالسفر بل يعد ذروة تعليم النبي إرميا، وأحد الشواهق الرفيعة لتعاليم أنبياء الكتب المقدسة.

واقتبس هذا النص كاملاً في العهد الجديد (عب ٨:٨-١٢) ومتفرقاً في (عب ١٠:١٦-١٧) ويمثل خلفية كتابية لتأسيس فريضة العشاء الأخير (١كو ١١:٢٥) هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي (قارن لوقا ٢٢:٢٠).

والعهد الجديد هنا لا يشير إلى ناموس جديد، بل إلى تجديد العزم والإرادة لإتمام العهد الأول عهد سيناء والناموس الأخلاقي الذي يوثق العلاقة بين الإنسان والرب خالقه وفاديه من كل ضيق (قارن خروج ١٩:٤-٦ مع تث ٦:٤-٩) وعمل ما هو حق وجليل وعادل (٦:١٦-٢١، ٧:٥-١٠، ٢٢-٢٣، ٢٦:٤-٦).

هذا العهد «ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يقول الرب (٣١:٣٢) يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم بقول الرب» (إرميا ٧:٢٢-٢٣، هوشع ١١:١-٤، قض ٢:٢٠، ١مل١١:١١، ٢مل ١٨:١١-١٢) بل أجعل شريعتي (ذات الشريعة) في داخلهم وأكتبها على قلوبهم. وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً (إرميا ٢٤:٧، ٣٢:٣٩-٤٠). أنزع قلب الحجر الصلب العنيد من لحمهم وأعطيهم قلب لحم... (حزقيال ١١:١٧-٢٠) ليس هذا عن استحقاق بل هي النعمة والمحبة الإلهية (حزقيال ٣٦:٢٥-٣٢، ٣٧:١-٣٨)، ولا أحجب عنهم وجهي بعد.. يقول الرب (٣٩:٢٩، يوئيل ٢:٢٨-٣٢).

ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب

لأنهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب

لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد (٣١:٣٤).

هذا العهد الجديد مبني ومؤسس على الغفران الإلهي، المبني على معرفة صادقة للرب. والتي سبق لهوشع أن نبر عليها كثيراً (هوشع ٢:٢٠، ٤:١-٢، ٦:٧، إرميا ٩:٢٤، ٢٢:١٦). إنها معرفة اختبارية حميمة، مثلما عرفه الأنبياء، وليست معرفة سطحية، بل معرفة لها الجذور الممتدة والعميقة، التي تمحو كل كبرياء إنساني أمام إلهه في اتضاع، معترفاً بآثامه وعدم التزامه بالعهد الأول (٧:٢٣، ١١:٤) وعازماً على الرجوع إليه بكل القلب (٢٤:٧، ٣٠:٢٢، ٣١:١، ٣٢:٣٨).

«لأني أصفح عن أثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد يقول الرب» إنه غفران وصفح يقود إلى عودة العلاقة مع الله، التي سبق وقُطعت مع الإنسان بسبب التمرد والعصيان. والإنسان الذي يدعو الرب من قلب طاهر يجيبه الرب ويخبره بعظائم وعوائص لم يعرفها (قارن ٣٣:٨، مع ٩:١٤، ١١:٨، ١٣:١٠، ١٦:١٠-١٣)... وفي هذا يؤكد ميخا النبي الحقيقة العظمى بأنه لا يوجد مثل الرب... لا يحفظ إلى الأبد غضبه لأنه يسر بالرأفة (ميخا ٧:١٨).

والعهد الجديد هنا لا يعني عدم ارتكاب الخطأ وبلوغ الفرد أقصى درجات الكمال. بل هو تأكيد على الغفران والصفح بالإيمان الذي في المسيح يسوع.